43

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة التاسعة / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٤

فجر الأمل

إذا الصحراء لهبُها اشتدَّ، ورملها استعر؛
نشَّت القدرةُ نَدى الفجرِ..
فلامسَ الرملَ، وبه الروحَ بعَثَتْ..
والحياةُ وإنْ بدتْ في الظاهر
بطيئة الحركة لِسَطْحيّي النَّظَر..
غير أنها للبصائر واضحة الأثر..

* * *

النفوس المكابدة **فتح الله كولن** ٢

الإسلام والمسألة الأخلاقية **أ.د. الشاهد البوشيخي** ٣٤

فرسان "الخدمة" **د. فؤاد البنا** ٦٠

عباقرة الآلام

في المقال الافتتاحي لهذا العدد من "حراء" يصف الأستاذ "فتح الله كولن" الأجيال من عباقرة الآلام بقوله عنهم: "فكلما قاسوا ارتفعوا، ولكما ارتفعوا قاسوا"؛ فكأنه يريد أنْ يقول إن أصحاب النفوس العظيمة والأفكار السامية من أصحاب الدعوات، لا شيء يُغرْبلهم ويُصفّيهم ويكشف عن جوهرهم النقي غير الآلام، ولا شيء يرفعهم إلى عوالم الطهر والسموّ مثل المقاساة والمعاناة.

فهناك ارتباط جدلي بين الآلام والأحزان من جهة، وبين العلو والارتفاع من جهة آخرى، فكلما اشتدتْ وزادت اشتدّ العلو وارتفع السموّ. فهذا السموّ الحزين والأسى العلوي، يظلّ يأكل في الأجساد حتى تَنْحَلَ وقد تمرض، فهذا النحول والمرض إنما هو زكاة عبقرية صاحبها.

ومع ذلك فهذه الأجيال ماضية في طريقها، موفية بعهدها الذي قطعته على نفسها، تركبُ مَتْن الإرادات الجانحة التي لا تعرف التوقف أو النكوص، وماضية في استنهاض العزائم الفولاذية -التي يلين الفولاذ وهي لا تلين- للوصول إلى مبتغاهم وتحقيق آمالهم في إنسانٍ أفضل وعالَمٍ أطهر.

وأمتنا اليوم هي حليفة حزن، وخدينة آلام، وصاحبة فواجع دامية، ومآسٍ ساحقة، حتى لَيُظنّ أنّ هذا الذي هو عليها اليوم إنما هو قدَرها اللازب بين أقدار الأمم، وأنها لن تستطيع الخلاص منه أو الانفكاك عنه... ولكنّ تاريخها ودينها يقول غير ذلك، يقول: إن هذه الأمة قد تسحقها الآلام وتفريها الأحزان، لكنها لن تموت، بل هي تقوم في كل مرة من بين رماد زمانها وقَفْره وجَدْبه، فتنفض عنها الرماد وتزيح عنها اليأس والقنوط، وتعود الآمال تحفزها للقيام من جديد، ولأخذ زمام المبادرة والعودة لاستئناف حياة إيمانية جديدة ودورة حضارية جديدة.

فمن أجل انبعاث هذا الأمل يكتب "كولن" ويكتب كلُّ "كتَّاب حراء"... فمن أوجب ما أوجبت "حراء" على نفسها، هو ابتعاث هذا الأمل... فكل ما يُنشر على صفحاتها إنما هو في المحصلة النهائية بارقةُ أملٍ، وهِزّة انبعاث، ورفع لعلَم الرجاء في حومات اليأس والقنوط.

وقد عقدت هذه الأمة آمالها على شبابها الناهض، المفعم الحيوية، الطامح إلى العلاء، المتسامي فوق الآلام، الناذر نفسه لدينه وإيمانه، الضارب في الأرض، حاملاً رسالة الإيمان، حامي حمى الروح، والمبشر بالأخلاقية العالية، والناشر لقيم الحق والعدل والجمال، صاحب الروحانية العالية، والعقلانية الراشدة، العامل بصمت، لا جعجعة له من غير طحن، ولا ثرثرة من غير فكر، لا يلغو ولا يصخب، بفارغ الكلام لا يأبه، أبجديته "لا قول بلا عمل، ولا عمل من غير هدى". وهذا هو ما تحتاجه الأمة في يومها هذا العصيب.

المحتويات

النفوس المكابدة / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
العلاج بالألوان.. صيحة جديدة في عالم الطب / د. محمد السقا عيد (علوم)	٤
ربيع الشباب الثقافي إلى أين؟ / د. مريم آيت أحمد (ثقافة وفن)	٨
الانبعاث الثاني / حراء (ألوان وظلال)	١٠
نحو جيل قرآني جديد.. مجتمع عباد الرحمن / د. عبد السلام الراغب (دراسات إسلامية)	١١
الكيمياء الخضراء.. حتمية القرن الواحد والعشرين / إيمان أحمد (علوم)	١٦
الأمن في السنة النبوية / أ.د. عصام أحمد البشير (قضايا فكرية)	٢٠
هالك الروح / حراء (ألوان وظلال)	٢٤
ملك المحيطات.. البطرس / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٢٥
البناء والتقدم بين تعظيم الدنيا وتعظيم الآخرة / أ.د. لطف الله خوجه (قضايا فكرية)	٢٩
سلوك المحتسبين / فتح الله كولن (الموشور)	٣٢
الإسلام والمسألة الأخلاقية / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	٣٤
من مظاهر التسامح في الإسلام / أ.د. محمد بركات مراد (ثقافة وفن)	٣٨
تلّة الرُّماة / د. محمد باباعمي (تربية)	٤٢
الجمال الابتلائي والجمال التعبدي / د. إدريس التركاوي (قضايا فكرية)	٤٤
هل هناك ما يسمى طبًّا إسلاميًّا؟ / د. خالد عمارة (علوم)	٤٨
طاغية / د. سلمان العودة (قضايا فكرية)	٥٣
سننية التغيير بين الإعمال والإهمال / د. سعيد شبار (قضايا فكرية)	٥٥
الفراغ الرهيب / حراء (ألوان وظلال)	٥٩
فرسان "الخدمة" وفيالق العبور إلى النور / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٦٠

النفوس **المكابدة**

لِلَحْن الأنين رُمْ قلبًا ممزّعًا،
واملأ بِحَرِّ العويل كيانه

إن الذين وهبوا قلوبهم للمبادئ السامية وتحملوا آلامها وأوجاعها، يقضون حياتهم كمبخرة تضطرم فتنشر روائح زكية. تولد الشمس وتغرب، وتتتابع الأسابيع والأشهر، وتتوالى المواسم موسمًا إثر موسم، وهكذا تمضي... وكذا يبقى هؤلاء وهم يبحثون في ضوء مبادئهم عن ربيعٍ آخر... يعيشون موسم الخريف على الدوام ويسمعون أغانيه الحزينة، ولكنهم لا يشكون من حالهم ولا من أحد، يتحملون كل ألم وعذاب في سبيل دعوتهم السامية التي أقسموا على نصرتها وساروا في دربها، لا يصيبهم سأم ولا ملل.

هذه الأرواح النيرة العاشقة لغايتها الجياشة بالبشائر تعلم مسبقًا أن هناك صعابًا جمة في طريقها، وودياناً

سحيقة، عليها أن تتجاوزها، لذا فقد أخذت هذا الأمر في حسبانها وتهيأت له. فلا تستطيع المشاكل المفاجئة، ولا المخاطر العديدة التي تقطع عليهم الطريق أن تحيرهم، ولا أن تبعث الشكوك في نفوسهم حول دعوتهم. فهم على يقين من أن يومًا سيأتي يزول فيه كل خطر، وتنفتح فيه كل الطرق لتقلب الاستحالات إلى أمور ممكنة، فعزمهم لا يفتر، وأملهم لا يخبو.

لذا لا ينجرفون إلى اليأس والقنوط أمام أكثر الحوادث بعثًا لليأس وأكثر الظروف قتامة وظلامًا، بل يتخطون العقبات بسرعة البرق ويتوجهون نحو أهدافهم مسرعين لاهثين.

تراهم على أُهْبَة الاستعداد لما يدور حولهم بكل دقة وحساسية، لا سيما ما له علاقة بدنْيا أفكارهم... يمتزجون مع المجتمع الذي يعيشون فيه امتزاجًا قويًّا؛ إن رأوا فردًا قد انحرف عن الطريق السوي، أو أسرة تكاد روابطها تنحلّ، أو قيمة معنوية تُسنِد المجتمع قد تضررت، تطاير النوم من عيونهم أيامًا وتقلبوا على فراش الألم والأنين.

أكثر ما ينفرون منه اللامبالاة، فهم يحسون بمشاكل كل شرائح المجتمع وأوجاعه وكأنها خنجر مغروز في قلوبهم، ويَطْوُون صدورهم على آلام مجتمعهم. كم من ليالٍ مضت عليهم نبضت قلوبهم فيها بالآلام وكاد الصداع يفتك برؤوسهم، يعيشون وسط حشود من الناس في وحدة وغربة.

تطوف الحسرات أرجاء لياليهم طوال أعمارهم، لا يحس بهذا أحد غيرهم، أو على حد قول الشاعر "باقي":

لا يدري راصد النجم ولا حاسب الأوقات ضنى الليالي السود الثقيلة،

لذا فاسأل المكروب ذا الهم والمغمومَ كم ساعة تمتد تلك الليالي الطويلة.

يرتبط الإنسان بمبدأ مّا بقدر إيمانه به وتغلغله في قلبه. وبنسبة ارتباطه هذا يحس بالفرح مرة وبالعذاب والأسى مرة أخرى. وحسب هذا المقياس فهناك من يصرف في سبيل دعوته يومًا أو أسبوعًا... شهرًا أو سنة أو سنوات. وهناك من يجعل من دعوته هدف عمره وحياته، فلو كان له من الرؤوس عدد ما في رأسه من الشعر، وطُلب منه في سبيل دعوته كل يوم منها رأسًا لقدّمه بلا تردد وبلا مَنٍّ منه ولا أذى. وقد كان سيد الرسل والأنبياء ﷺ ذروة في هذا الأمر حتى خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(الكهف:٦).

وكم من أفذاذ اقتفوا هذه الفطرة السامقة التي لا مثيل لها قضوا حياتهم يتنفسون الآلام ويقاسون تباريح الفكر، مع الأوجاع كان قيامهم وقعودهم. وشدة الآلام عند هؤلاء تتناسب طرديًّا مع درجة سمُوّهم وعظمتهم الروحية، فكلما قاسوا ارتفعوا، وكلما ارتفعوا قاسوا، حتى تطهّروا من كل ذنب وأصبحوا لغزًا من ألغاز السماء. أجل، ليس هناك ما يطهّر الإنسان من ذنوبه وينقّيه ويَسْمُو به مثل المعاناة في سبيل الحق تعالى وفي سبيل صلاح الأمة. وقد ورد في الحديث: "إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفّرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، تكفّرها الهموم في طلب المعيشة" (كنز العمال). فما بالك بمعاناة الآلام في سبيل إنقاذ الأمة وإنقاذ المجتمع الذي نعيش فيه!

إن أشد ما نحتاج إليه اليوم ليس هذا أو ذاك، بل نحن في أمس الحاجة إلى من يقول: "إنني أرضى في سبيل سعادة أمتي المادية والمعنوية أن أُحرق في لهيب النيران"... إلى من يفني نفسه في سبيل الحق تعالى والأمة ضاربًا عرض الحائط بمنافعه وبمصالحه الشخصية... إلى من يتلوّى بآلام المجتمع ويتأوّه... إلى من يحمل في يده شعلة العِلم ليشعل في كل مكان أقباسًا وأنوارًا تطارد الجهل والسفاهة وتطردهما... إلى من يهرع بكل عزم وإيمان إلى الذين ضاعوا بين الطرق ويمدّ لهم يد العون والمساعدة... إلى من يستمر في طريقه كجواد أصيل دون أن يشكو من الصعاب التي تعترض طريقه ودون أن يتأفف أو ييأس... إلى أبطالٍ نسوا أذواق العيش والحياة لأنفسهم وفضّلوا عليها لذة خدمة الآخرين في عيشهم وحياتهم. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي (رحمه الله).

الهوامش

(١) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد:٧٣، سنة ١٩٨٥.

hiramagazine.com

د. محمد السقا عيد*

العلاج بالألوان

صيحة جديدة في عالم الطب

العلاج بالألوان وسيلة من وسائل العلاج النفسي والجسمي، فقد اكتشف العلماء وجود مجال كهرومغناطيسي حول كل كائن حي، يعمل على امتصاص الضوء وتحليله إلى ألوان الطيف التي تبدأ بالأحمر وتنتهي بالبنفسجي. ووجدوا أيضًا، أن أنسجة الجسم المختلفة تأخذ من طاقة هذا الطيف حاجتَها، مما يؤدي إلى صحتها وتعزيز قدرتها على أدائها البيولوجي. وهذا يعني أن هناك حاجة بيولوجية للأنسجة من الألوان، فإذا ما غابت أو نقصت تعرَّض هذا النسيج للضعف والمرض والاضطراب.

وقد استُخدمت هذه الحقائق علاجيًّا، فأصبح من الممكن إعطاء المريض جرعة من الألوان كما تعطى جرعة من الدواء أو الغذاء، إذ أصبح اللون جزءًا من العلاج بالأشعة.

يَستخدم المعالجون مدىً واسعًا من الأساليب لمعالجة مرضاهم، تشمل تغطيتهم بأوشحة ملونة، أو تسليط أضواء ملونة على أجزاء مختلفة من أجسامهم، أو عرض ألوان معينة عليهم، أو تدليكهم بزيوت ملونة، أو إضافة ملابس مختلفة الألوان لخزانة الثياب.

وتعتمد هذه التقنية العلاجية -التي طوّرها علماء أعصاب أمريكيون- على حزم ضيقة من الضوء الملون تستخدم لتنشيط الخلايا المستقبِلة للضوء التي تعرف بالعصويات والمخروطيات الواقعة خلف العين في عدة جلسات تستغرق كل منها ٢٠ دقيقة، وذلك بهدف إعادة التوازن للجهاز العصبي الذاتي.

ويرى المعالجون أن هذه التقنية إذا لم تعالج الحالات المرضية، فإنها تساعد في تحسين الصحة النفسية للمريض بشكل عام؛ فعلى سبيل المثال، يمكنها تخفيف حالات التوحد النفسي والعدوانية عند الأطفال، كما تساعد في تحقيق الدعم والراحة النفسية لمرضى السرطان وتحسين نوعية حياتهم.

وأشار الخبراء إلى تزايد إقبال الآباء على استخدام الصناديق الضوئية الملونة -التي تعرف باسم "لوماترون"- لمعالجة أطفالهم المصابين بمشكلات مرضية تتراوح من التوحد إلى عسر القراءة وخلل التناسق وعسر الانسجام، وذلك بعد أن حقق هذا العلاج نتائج ممتازة في هذا الصدد.

كيفية تطبيق العلاج باللون

لا توجد فحوص خاصة في الطب التقليدي لتشخيص "نقص" لون معين داخل الجسم، وبالتالي فالعلاج بالألوان ليس له قواعد محددة في هذا الطب، أما عن كيفية تزويد الجسم بتلك "الألوان الناقصة" التي يحتاجها، فإن ذلك يتم عن طريق ممارسة بعض وسائل الطب البديل، مثل "اليوجا" و"التصور" و"التأمل"، ولكلٍّ منها أسلوب مختلف.

وحتى يتم "العلاج بالألوان" بصورة صحيحة وسريعة، يجب أن يتوافر اللون المستخدَم في عملية العلاج في غذاء الشخص اليومي، مع الأخذ في الاعتبار

القيمة الغذائية لهذا الغذاء، والتي لا يمكن إهمالها. ومن أمثلة الأغذية المحتوية على اللون الواحد البنجرُ والطماطمُ والبطيخُ وكلها يتوافر بها اللون الأحمر، أما اللون البرتقالي فنجده في الجزَر والبرتقال والمانجو، فيما يحتوي التوت والعنب على اللون البنفسجي.

الطريقة التقليدية التي تُستعمل بها الألوان للعلاج، تتمثل في "استحمام" المريض بضوء يشعّ عبر مرشح (فلتر) ذي لون معين لفترة محددة، حيث تكون حجرة العلاج مطفأة النور باستثناء الضوء اللوني العلاجي، وقد يحمل بعض المعالجين شيئًا ملونًا مثل بطاقة فوق منطقة معينة من الجسم، أو يوصون المريض بارتداء ثياب من لون معين. وفي إحدى الطرق التي تعرف باسم "تنفس اللون"، يُطلب من المريض تخيُّلَ لونٍ ما، ويُطلب منه أن يقوم بـ"استنشاق" هواء ذلك اللون، وقد يوصي المعالجون أيضًا المريض بتناول أطعمة من لون معين، وشُرْب ماء تَشرَّب ضوءَ الشمس عبر مرشّح أو

العلاج بالألوان وسيلة من وسائل العلاج النفسي والجسمي، إذ اكتشف العلماء وجود مجال كهرومغناطيسي حول كل كائن حي، يعمل على امتصاص الضوء وتحليله إلى ألوان الطيف التي تبدأ بالأحمر وتنتهي بالبنفسجي.

حراء

لوحة أو شاشة ملونة، أو شُرْب عصير من لون معين.

العلاج بالألوان وأشعة الشمس

أصبح الكثير من الأطباء والعلماء يتجهون إلى العلاج بالألوان وأشعة الشمس، لِما لها من تأثير قوي على الإنسان أكثر من العلاج بالمواد الكيميائية.

وللدكتور "قيس غوش" كتاب بعنوان "العلاج بالألوان وأشعة الشمس"، وملخص فكرة الكتاب هو كشف علاقة الألوان وأشعة الشمس بصحة الإنسان وسلوكه، وأنها تمنحنا العلاج عندما نشعر أننا بحاجة

إليه، وهي تؤثر في كياننا تأثيرًا بالغًا. ومن الطبيعي أننا نتأثر ونستخدم الألوان في حياتنا، فنحن نتعرض لها في كل حين بصورة تلقائية ودون وعي منا. وكما يقول الدكتور "غوش": "كلما استخدمنا الألوان بوعي زاد تناغمنا معها". وبعد وعْينا لهذا العلم نجد أننا في تجدد، وأننا نسير باتجاه شفاء أجسادنا وتقوية أعصابنا. لقد بدأنا ندرك بأن صحتنا وحيويتنا تعتمدان -إلى حد كبير- على الألوان والأشعة الشمسية طالما أن حياتنا تبدأ بالنور ويمدها هذا النور بالحياة والنشاط.

والحق كما يقول الدكتور "غوش": "إن الذين بدأوا يَعُون أهمية الألوان والنور أخذوا بالتزايد، وأن مسألة مساعدة أنفسنا غدت تعني أننا أصبحنا أكثر وعيًا لأنفسنا وللعالم الضوئي الذي يحيط بنا".

نماذج للعلاج بالألوان

١- استخدم الفراعنة اللون فوق الأخضر داخل الأهرامات لمقاومة الجراثيم وقتل البكتيريا وبالتالي المحافظة على المومياوات.

وأظهرت البحوث الحديثة أن الاستخدام الصحيح للألوان، يمكن أن يزيد التركيز والنشاط والقدرة على التعلم والفهم والتذكر بنحو ٥٥ إلى ٧٨ بالمئة.

٢- دراسة أخرى أجريت عام ١٩٨٢ في كلية التمريض بـ"سان دييجو" تم فيها تعريض ٦٠ امرأة في متوسط العمر يعانين من التهاب المفاصل الروماتيزمي، للون الأزرق لـ١٥ دقيقة، فشهدن تحسّنًا ملحوظًا في شدة الألم الذي خف بدرجة كبيرة عن ذي قبل.

٣- بينت دراسة أجريت عام ١٩٩٠ تم فيها تسليط أضواء حمراء اللون على عيون مجموعة من المرضى يعانون من الصداع النصفي في بداية ظهور النوبة، فتعافى نحو ٩٣ بالمئة منهم بشكل جزئي نتيجة هذا العلاج، وأرجع المعالجون السبب في ذلك إلى أن اللون الأحمر يزيد ضغط الدم الشرياني ويوسع الأوعية الدموية.

٤- كما بينت التجارب أن للألوان أيضًا تأثيرًا في مدى إحساسنا بالحرارة، حيث أجريت دراسة في النرويج عُرف من خلالها أن وجود الناس في غرفة مطلية باللون الأزرق، يدفعهم إلى رفع مؤشر التدفئة المركزية ثلاث درجات أعلى من أفراد يجلسون في غرفة مطلية باللون الأحمر.

٥- وأثبتت دراسات أخرى أن خفة الألوان ودكانتها -بعمقها وتدرجها- تؤثر في دقة إدراكنا للوقت، كما يؤثر في قدرتنا على التركيز والتذكر.

٦- قام عالم دانمركي يدعى "نيل فنسين" باستعمال الضوء الأحمر في علاج الجدري، وأثبتت التجارب أن اللون الأحمر يمنع وصول الأشعة فوق البنفسجية إلى الجلد المصاب، كما يمنع حدوث التشوهات.

٧- هناك معتقد أن ضوء الشمس بما فيه من سرعة "ألوان الطيف"، له قدرة على إنتاج فيتامين "د" تحت الجلد، وهذا الفيتامين يقل في حالة الإصابة للين العظام، حيث تعد من أهم الفلسفات في تكوين العظام.

٨- كما كشف أخصائي الجلدية في مركز بوسطن الطبي بالولايات المتحدة، النقابَ عن أن حزمة من الضوء الأزرق قد تعيد نضارة الشباب إلى البشرة وتزيد الوجه تألقًا وجمالًا.

ووجد هؤلاء في دراسة، أن العلاج بالضوء الأزرق الذي صُودِق عليه أصلاً لمعالجة الآفات الجلدية السرطانية في الوجه، يزيل التجاعيد والخطوط الخفيفة والبقع البنية الداكنة من الوجه.

وأوضح الخبراء أن الضوء الأزرق يتفاعل مع محلول خاص يوضع على الوجه، وخلال ١٦ دقيقة تحته وبعد أسبوع واحد من النقاهة يتم

الحصول على الهدف المطلوب.

٩-فسّر علماء مركز بوسطن ذلك، بأن الخلايا التالفة تخضع لهذا التفاعل الذي يسبب انفصالها وتساقطها لمدة أسبوع ليحل محلها خلايا جديدة سليمة، وأشاروا إلى أن نتائجها ليست مثيرة كنتائج عملية إعادة تسطيح الجلد بالليزر، لكن مدة التعافي فيها أقصر، وهي بديلٌ بنَفْسِ جودةِ عمليات التقشير الكيماوي، وقد تكون أفضل منها كونها أبسط وأقل عدوانية وإيلامًا. وأبان الخبراء أن هذه التقنية المضادة للشيخوخة مكلفة للغاية، حيث يصل سعر الجلسة الواحدة منها إلى ٨٠٠ دولار، كما أن آثارها على المدى الطويل لم تتضح بعدُ، لأنها ما زالت حديثة.

١٠- طوّر بعض الأطباء بحوثًا ودراسات هدفت إلى علاج الحروق بالألوان، وذلك بوضع المنطقة المصابة تحت ضوء ملفوف باللون الأخضر، وكانت النتيجة لدى كثير من المرضى أن الألم قد خف بصورة أسرع. كما استخدم الأطباء ألوانًا أخرى لعلاج الربو وآلام الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والمغص والقرحة وغيرها.

١١- ثبت علميًا أن وَضْع الأشخاص الذين يميلون إلى العنف في غرفة مطلية باللون الوردي الفاتح لفترة قصيرة يجعلهم أكثر هدوءًا واسترخاء، والسبب هو التأثير الفسيولوجي الذي تحدثه طاقة الكهرومغناطيسية لهذا اللون على إفراز الغدد التي تؤثر مباشرة على الانفعالات العاطفية المختلفة.

١٢- وقد ثبت أيضًا أن طلاء حُجرات الدراسة باللون الأزرق الفاتح مع وضع مصابيح إضاءة عادية، يجعل التلاميذ أكثر انتباهًا ويقلل سلوكهم العدواني، أما طلاء الجدران باللون البرتقالي مع الإضاءة بالفلورسنت، فإنه يحدث أثرًا عكسيًا لسلوك التلاميذ.

وطريقة العلاج بالألوان تعتمد على اختيار اللون المناسب للمرض وإحاطة الجسم به مكانيًا بالجلوس فيه أو بارتداء ملابس من نفس اللون، وتأمله أثناء تركيز العقل على الجزء المصاب من الجسم. وبذلك اتضح أنه تؤثر رؤية عين الإنسان للألوان نفسيًا بل وصحيًا عليه. إن للألوان تأثير سيكولوجي والتي تصنف إلى تأثير مباشر وآخر غير مباشر.

١٣- يؤكد المعالجون بالألوان أن جسم الإنسان يعرف بفطرته أهمية الألوان، لذلك عندما تصيبه الكآبة نراه يرتاح إذا نظر إلى السماء والبحر أو للخضرة والأشجار.

ولعلّ الزمن القادم يفصح عن بعض الأسرار التي كشفها القرآن العظيم عن الألوان وما فيها من بديع صنع الله وقدرته وآلائه، وما أودعها ﷻ من أسراره ولطائفه.

وأخيرًا يكفي أن نعلم أنه من غموض الأزرق خلف السماء وتحت البحر ولدت الفلسفة، ومن خير الغابات الخضراء تعلّم الإنسان الأول العطاء قبل الأخذ وهو يقطف ثمار الأشجار.

ومن وهج النار عرف ألم الاحتراق، وأيضًا أحس بالدفء والأمان من الوحوش المفترسة من سواد الليل. فمع الألوان تعلم الإنسان المعيشة على الأرض، ومن وحي الطبيعة اختار ألوانًا للحب وأخرى للحرب.

تُرى، هل سيأتي اليوم الذي سنجد فيه معاهد متخصصة للعلاج بالألوان؟ وهل سيصبح العلاج بالألوان هو صيحة القرن القادم؟ ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

د. مريم آيت أحمد*

ربيع الشباب الثقافي
إلى أين؟

من المتفق عليه أن أزمة الثقافة أزمة عالمية، تتداخل في وجودها أسباب عديدة قد يكون التقدم العلمي التكنولوجي في مقدمتها. لكن يأخذ الحديث منحى آخر عندما نتحدث عن الثقافة في المنطقة العربية عامة وفي المغرب خاصة، حيث لا توجد إحصائيات لمعرفة علاقة الشباب بالقراءة بشكل دقيق، لذا يبقى الأمر ضمن حدود التصورات الشخصية القائمة بشكل أساسي على الملاحظة والتحليل الشخصي، كتقييم لبعض المؤشرات التي تفيد بأن الشباب المغربي في حالة عزوف عن القراءة، من بينها أرقام مبيعات الكتب في المعارض أو حتى عدد النسخ الموزعة من الكتب وحساب النسبة التقريبية للشباب من بين المشترين.

القراءة إذن هي الوسيلة المثلى التي ركز عليها القرآن الكريم في أول سورة نزلت، لتؤسس الأداة المعرفية العملية لتَعلُّم الإنسان وتحريره من الجهل والتقليد والركود الذهني والنفسي والعملي والإنتاجي في دورة الحياة والحضارة، ومن خلالها يستطيع الإنسان فهم نفسه ومجتمعه وتطوير عقله. لكن لماذا تحاول المجتمعات الراقية المتعلمة الإفادةَ من وقت فراغها بالقراءة، بينما تراجعت في بلادنا القراءةُ كثيرًا وأصبحت

بندًا مهملاً في جدول أعمال معظم أفراد مجتمعاتنا؟ أهو الوقت والعدو وراء لقمة العيش، أم التقنيات الحديثة كالقنوات الفضائية والفيديو والكمبيوتر والإنترنت؟ هل هو غياب دور الأسرة في التوجيه والترشيد والتحفيز للقراءة، أم أن العثور على كتاب قيّم يجذب القارئ بالشكل والمظهر والمضمون أصبح صعب المنال؟

هل هو سعر الكتاب الذي لا يتناسب مع دخل الأسرة الهزيل، أم هي لا مبالاة وشيوع ثقافة الاتكالية والاستهلاك والتسطيح المعرفي، وضعف تكوين الأسر والمناهج التربوية وطرق التدريس التقليدية غير المحفزة على السؤال والنقد والإبداع والانفتاح والمعرفة والاستيعاب؟ والأهم من هذا كله، تُرى هل علَّمْنا أبناءنا -أُسرًا وأساتذة ومؤسسات تربوية واجتماعية وإعلامية- أن يجعلوا من القراءة متعة؟

هذه مجموعة أسئلة وأخرى تطرح نفسها بشدة إذا أردنا مقاربة زوايا آليات النهوض بتفعيل موضوع حب المطالعة في مجتمعنا.

حين نتحدث عن الربيع العربي، ينبغي أن نفرشه بأزهار الربيع الثقافي التي تذبل أمام انخفاض مستويات القراءة والمطالعة بين شبابنا، فإحصائيات بعض المؤشرات تتحدث عن أن ٣٠٠ ألف عربي يقرؤون كتابًا واحدًا، ونصيب كل مليون عربي هو ٣٠ كتابًا، ومعدّل ما يخصصه المواطن العربي للقراءة الحرة سنويًّا هو عشر دقائق فقط، ومعدل القراءة السنوية للشخص الواحد في العالم أربعة كتب، وفي العالم العربي ربع صفحة. وحين تكون هذه المؤشرات نابعة من أمة "اقرأ"؛ الأمةِ التي أخرجها الإسلام من زمن الجاهلية إلى زمن المعرفة، وأسس لها دعائم لبناء عمارة الأرض والكون بأداة القلم التي علّم بها الإنسانَ ما لم يعلم، نفهم وقتها أن مستوى تطور المجتمع، يلعب دورًا محدِّدًا في إكساب الأفراد سمات معينة في الحياة من بينها عملية القراءة والتثقيف. لذلك أدرك المسلمون هذا الدور، وانكبّوا على ترجمة الفلسفة اليونانية والانفتاح على الثقافات والمعارف الأخرى قراءة وتحليلاً وتجديدًا وتطويرًا، فحققت هذه الشعوب العصرَ الذهبي للحضارة الإسلامية. لكن

القراءة هي الوسيلة المثلى التي ركز عليها القرآن الكريم في أول سورة نزلت، لتؤسس الأداة المعرفية العملية لتَعلُّم الإنسان وتحريره من الجهل والتقليد والركود الذهني والنفسي والعملي والإنتاجي في دورة الحياة والحضارة، ومن خلالها يستطيع الإنسان فهم نفسه ومجتمعه وتطوير عقله.

حراء

مع الوقوف عند فترات التقليد والجمود، قلّ الاهتمام بالعلم وبالقراءة وبالبحث العلمي، وصار موضوع القراءة هو "ألف" "باء" مجتمعاتنا. فتطور المجتمعات الأوربية ما كان ليتحقق لولا تقدّم العلم وتفعيل النهوض الثقافي. وهذا يعني أن القارئ الأجنبي ليست لديه سمات بيولوجية تجعله أكثر قدرة على القراءة من القارئ في المجتمعات العربية عمومًا، وإنما هو تعوُّد على ممارسة تؤكد هذا الانطباع. فالأوربيون -على سبيل المثال- عندما يكونون في طريقهم إلى العمل أو في وقت الفراغ، فإن هذا الوقت لا يضيع هدرًا، إنما يستثمرونه في قراءة الصحف أو أي كتاب يكون معهم، لدرجةٍ كنتُ أتألم لحال بعضهم في ميتروهات لندن ساعة الدروة، وهم يمسكون بيد في عمود الميترو حتى لا يقعون أرضًا، ويستعملون اليد الأخرى في تصفح الكتاب مع شدٍّ وجدبٍ وزحمةٍ من دون أي انزعاج أو تراجع عن استمتاعهم بالقراءة والمطالعة.

أظن أنه عندما يستطيع المجتمع أن يضع الوقتَ في مكانه ويؤسس وعيًا مجتمعيًّا بأهميته، يمكن أن يمارس السلوكيات نفسها. فكيف السبيل إلى إعادة اعتبار وإحياء قيمة الوقت واستثمارها في المعرفة والتعلم؟

فماذا قدمنا في مجتمعنا، في مدارسنا، في مؤسساتنا التربوية، لتشجيع شبابنا على القراءة واستثمار الوقت في المعرفة بشتى تلاوينها وتخصصاتها ومواضيعها؟ هل احترمنا عقولهم بتقديم منتوج يتميز بالمصداقية ويجيب عن تساؤلات عصرهم؟ هل أعدنا الاعتبار للثقافة الراقية والمثقف الحقيقي الذي يجب أن يتم الترويج لأفكاره وأعماله عبر كل القنوات الإعلامية حتى يصبح مثلاً

hiramagazine.com

أعلى يعوض نجوم الغناء الرديء والفن الهابط الذي يستحوذ على أغلب الفضائيات العربية؟ هل غرسنا محبة القراءة في أبنائنا وجعلناها عادة تلازم شبابنا في مختلف الفضاءات؟ هل استطاعت أحزابنا أن تسعى من خلال تطبيق فعلي عملي لبرنامجها السياسي في هذا الاتجاه تتم أجرأته تربويًّا واجتماعيًّا وإعلاميًّا؟ هل عملنا على تقريب الكتاب من القارئ، وجَعْله في المتناول كمًّا ونوعًا ومنهجًا حتى يستوعب تباين المستويات الفكرية والذوقية والمزاجية والفنية للقارئ؟ وبالتالي هل جعلنا مضامين الكتب في مجتمعاتنا تتماشى مع الحاجيات الملحّة والتحديات المؤرقة لشبابنا حتى نبعدهم من منزلقات وأخطار البحث عن إجاباتها في الأماكن المظلمة؟ ألم يَحِن الوقت بعدُ للتفكير بجدية، وتكثيف الجهود للقيام بمبادرة خطة إستراتيجية شمولية تعمل على النهوض بالقراءة من خلال الأسرة والمدرسة والإعلام والمجتمع، باعتبارها بوّابتنا نحو المستقبل والمنافسة الحضارية العالمية؟

ألم يَحِن الوقت لإعلان ثورة ربيع ثقافي ننمّي بربيعها مجتمعنا، ونعمل على تقريب الكتاب من القارئ، وذلك بجعله في المتناول بتأثيث فضاءات الأحياء والقرى بمنتدى ثقافي أو مكتبة أو نادٍ ودار للشباب ومهرجانات للقراءة والمطالعة؟

وهناك مقولات لعلماء عظام تبين أهمية القراءة والمطالعة الحرة أذكر منها:

- الإنسان القارئ تصعب هزيمته.
- إن قراءتي الحرة علّمتني أكثر من تعليمي في المدرسة بألف مرة.

سئل أحد العلماء العباقرة: لماذا تقرأ كثيرًا؟ فقال: لأن حياة واحدة لا تكفيني" فالقراءة هي المفتاح الذي يدخل بواسطته أي شخص إلى مجالات العلوم والعوالم المختلفة. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الانبعاث الثاني

الزمن يأكل بعضُه بعضًا،
والمكان يطوي بعضُه بعضًا...
والإنسانية على مفترق الطرق،
حائرة ذاهلة؛
تُرَى هل دقَّتْ ساعة العالم،
ونهايته اقتربت، وقيامته أزِفت؟!
إنْ لم يحدث هذا،
فانبعاثنا الثاني قادم إذن،
وزماننا السعيد آتٍ...
والإنسانية إلى النجاة سائرة...

* * *

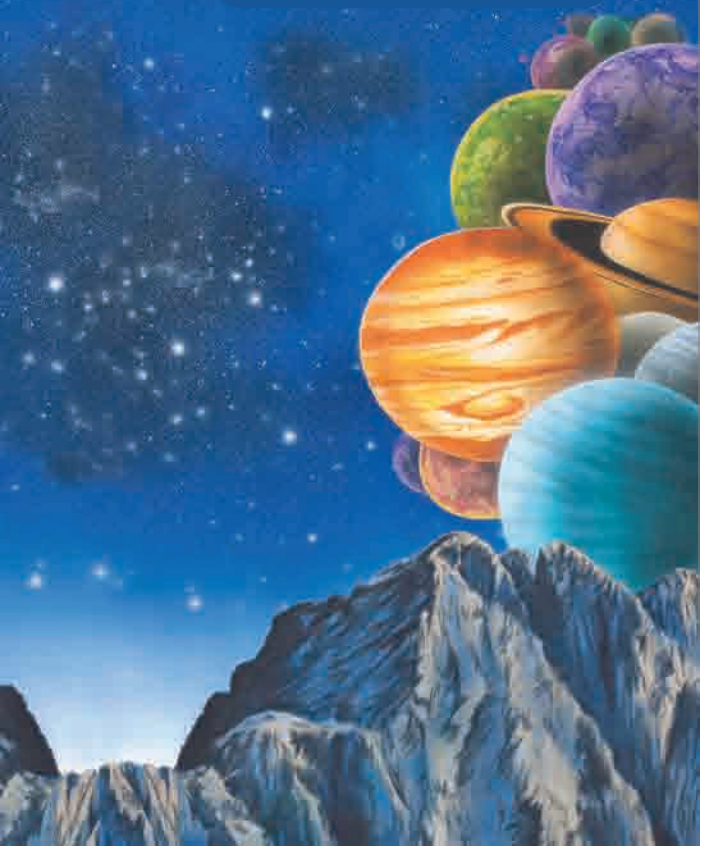

hiramagazine.com

د. عبد السلام الراغب*

قَسَا قلبُك فظننتَ بالمؤمنين شرًّا، وغلظتْ روحُك فظننتَ الإساءة منهم إليك تأتي.. إذا كان هذا اعتقادك فأين ظنُّكَ بالمؤمنين خيرًا؟ اشحذْ عقلَك، وتخلّص من وسْواس نفسك، وأَزِحْ ثقل روحك، والتمسْ لك ربّانيًّا يهزُّ قلبَك ويسيل دمعك.

الموازين

نحو جيل قرآني جديد

مجتمع عباد الرحمن

إن الخاصية الأساسية لـ"مجتمع عباد الرحمن" أنه مجتمع "رباني"؛ بمعنى أنه يستمدّ مقومات وجوده وخصائصه من "العقيدة الإسلامية" وثوابت "الشريعة"، وأن البشر فيه يتلقون هذه العقيدة وهذه الشريعة تلقيًا كما في الكتاب والسنة، وينحصر عملهم في هذا التلقي والنمو في هذه الحدود. فهو مجتمع من نتاج العقيدة والشريعة محدّد المقومات والخصائص، ولا دخل للبشر في وضع تصوراته وقيمه ونظامه الاجتماعي، وأنه أُخرج إخراجًا وفق نموذج إنساني

معيّن يحققه القرآن الكريم. وليس معنى هذا أنه يقيّد من حركة أفراده في تلبية ضروراتهم وحاجاتهم، بل إنه يدعوهم إلى تحقيقها وتلبيتها ويدفعهم إليها دفعًا. فهو مجتمع "مدني" بمؤسساته ونشاطاته وإبداعه وخدماته وتنظيماته الإدارية وغير ذلك... ولكن بمرجعية "دينية" تضبط حركته السلوكية ضمن ثوابت الشريعة الإسلامية، فتبقى هذه الحركة الاجتماعية الناهضة فيه تدور حول هذه الثوابت الأساسية، وضمن إطار مرن يتسع للمتغيرات العصرية والاجتهاد الدؤوب المستمر بغية الوصول بالمجتمع إلى "المعاصرة" مع احتفاظه بثوابته وأصالته، وهذان العاملان (الأصالة والمعاصرة) أساسيان في نهضته وتقدمه وحضارته، ويساعد على ذلك أن الأعمال المدنية والدنيوية تعد في المجتمع الإسلامي عبادة لله ﷻ، ووسيلة تقرب إلى الله ﷻ؛ لأن مهمة الإنسان في هذا المجتمع، تسخير الكون وتعمير الحياة وتحقيق الاستخلاف المنوط به، وبذلك يكون سعيه في هذا الاتجاه عبادة لله سبحانه. إن هذا المجتمع دقيق في بنائه، متكامل بخصائصه وأركانه، وكل صفة فيه وكل جزئية من الجزئيات متناسقة ومترابطة بعضها ببعض، حتى تكون في مجموعها مجتمعًا إسلاميًّا متميزًا بسماته ومقوماته وطبيعته واتجاهه، يتم فيه ربط العقيدة بالعمل، والعبادة بالسلوك، والآخرة بالدنيا، في تفاعل اجتماعي متجه إلى الله ﷻ بكل نشاطاته وأعماله وعواطفه وغاياته. ونقطة البدء في ذلك "توحيد العقيدة" لله وحده: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾(الفرقان:٦٨)، وهذه هي القاعدة الأساسية في بنائه وتكوينه، نلمس آثارها في بقية المكونات له، وفي نظامه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي. إنه مجتمع متكامل لا تُفصل فيه العقيدة والعبادة عن السلوك الاجتماعي، كما لا يمكن فيه فصل الدين عن أنشطة الحياة المختلفة، وقد تبين ذلك -فيما تقدم- في وصف أفراده وتحديد مقوماته ومعالمه. فالتوجه في المجتمع الإسلامي، إلى الله وحده لا إلى الأرباب والأوثان بمختلف ألوانها وأشكالها وصورها: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾؛ فهذه العقيدة النقية الخالية من شوائب الوثنية والشرك، والمتجهة إلى إله واحد لا شريك له، له الحكم وله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، يتساوى فيها البشر في التوجه والاتجاه؛ في توجه القلوب والمشاعر والعواطف لله وحده، وفي اتجاه الإنتاج والأعمال إليه أيضًا، وبذلك يتحرر الإنسان من العبودية لغير الله فلا يحس بمشاعر الذل والمهانة أمام الآخرين، بل يشعر بإنسانيته ومساواته وحريته وكرامته فلا يساوم على حريته، ولا يتخلى عن كرامته مهما اشتدت عليه وطأة الظروف والأوضاع.

إن أثر "توحيد العقيدة لله" نراه في "توحيد الاتجاه" أيضًا في المجتمع الإسلامي، فالكل فيه "عباد لله" يخضعون له وينقادون، ويتجهون إليه ويستمدون منه منهج حياتهم... وحين يكونون كذلك يستحقون رحمته ورأفته، وإضافتهم إلى رحمته "وعباد الرحمن"، وهذا مفرق الطريق بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى. ففي المجتمع الإسلامي المنهجُ "إلهيٌّ"، وفي المجتمعات الأخرى المنهجُ "وضعيٌّ" من صنع البشر ومن اختراع البشر وفق الأهواء والأمزجة، والمحاباة للذين يضعونه لتحقيق مصالحهم أو مآرب مَن يلوذون بهم أو يتقربون إليهم، فيشقى الناس من هذه الأهواء المتقلّبة في المنهج الوضعي المتغير باستمرار، لكثرة المنافسة والصراع على تبديلها وتغييرها لتحقيق مصالح وأطماع جديدة لمخترعيها والذين يستفيدون من هذا التبديل والتغيير.

أما المنهج الإلهي فهو يرجع إلى الله ﷻ الذي خلق الإنسان والحياة، وهو أعلم بما يفيده ويسعده ويصلحه ويصلح أسرته ومجتمعه وحياته. وقد تثار شبهة في الذهن بأن المنهج الإلهي ثابت والحياة متغيرة متجددة، ولا يمكن لهذا "المنهج الثابت" أن يتحكم بأوضاع الناس المتغيرة وحاجاتهم المتجددة. وتزول هذه الشبهة من الأذهان حين نعلم أن المنهج الإلهي يقرر "المبادئ الكلية الأساسية" التي تبنى عليها أصول الحياة، مثل العدل والشورى والمساواة والإخاء والعمل والتعاون والسلام والاستقامة... وترك لنا حرية اختيار الوسائل والأدوات لتحقيق هذه المبادئ الكلية وفق نمو

hiramagazine.com

المجتمع، وتطور وسائله وأدواته في تأمين ضروراته وحاجاته وكمالياته. لكن العبث في ثوابته الكلية الموضوعة أساسًا لحماية الحياة من الخلل والعيوب، ولتحقيق مصلحة الأحياء جميعًا بلا محاباة أو استغلال، يعدّ تدميرًا للحياة والأحياء معًا، وشقاء للإنسان وتدميرًا لخصائصه الإنسانية أيضًا.

إن "الشورى" -مثلاً- مبدأ ثابت من المبادئ الكلية التي لا تستقيم الحياة بدونه وقد قرره القرآن الكريم في إطاره العام، أما وسائل تطبيقاته وأدواته الضرورية لتحقيقه، فقد تُركت لنمو المجتمع ونضجه وتطور وسائله في تحقيق مبادئه الكلية الثابتة. من هنا نلاحظ هذا الوصف العام لـ"عباد الرحمن" من غير تفصيل في رسم معالم المجتمع الإسلامي بأهدافه وخصائصه العامة، ليمنحه مرونة الحركة والإبداع، ويبعده عن التحجر والجمود. وتبرز آثار "عقيدة التوحيد" في نظامه الاجتماعي، في حركة الرفق والتواضع والسلام والسماحة بين أفراده، والاتجاه فيه نحو البناء والتعمير النافع المفيد من الأفكار والأعمال، والبعد عن هدر الأوقات والطاقات البشرية في لغو المجالس والأحاديث المعروفة والسائدة في المجتمعات المتخلّفة، والبعد عن الفساد الخُلقي والعلاقات غير الشرعية، وفي نظامه الاقتصادي الذي يقوم على "التوازن" في الإنفاق والمصروفات على مستوى الأفراد والدولة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧)؛ إنه نظام وسطي متوازن، ينفق في اتجاه الخير وتحقيق أهدافه المرسومة عن وعي وتخطيط وتوفير للطاقات والموارد أن تضيع سدى بلا فائدة. فهو لا يشبه النظام الرأسمالي في إسرافه ورعونة استهلاكه وهدر طاقاته، وتدمير خصائص الإنسان وتعاسته وشقائه واضطرابه وحيرته... ولا يشبه النظام الشيوعي أيضًا في بخله وشحه وتجميده للطاقات والموارد فلا يستفاد منها في الطريق الصحيح، وهذا ما عجّل في سقوطه وانهياره، كما سيعجّل في سقوط النظام المسرف ولو بعد حين... وفي نظامه العلمي والثقافي في إطلاق طاقات "العقل" ليعمل ويبدع،

نحن بحاجة اليوم إلى تقويم حياتنا الإسلامية بغية التصويب والتسديد للوصول إلى "الصواب" في مسار الأفراد، وفي اتجاه المجتمع والأمة. والخطوة التي علينا أن نبتدئ منها هي العودة إلى النبع الصافي والنور الفياض وهما "الكتاب والسنة".

حراء

ومحاربةِ الانغلاق الذهني والاستنساخ الثقافي، من غير وعي وتمييز وتقويم.

إن السمة الغالبة في المجتمع الإسلامي هي سمة "التقوى" بمعناها الشامل للأعمال كلها والسلوك الإنساني كله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(الفرقان:٧٤)؛ التقوى في العقيدة والفكر، والتقوى في الشعور والسلوك، والتقوى في العمل والإنتاج، والتقوى في الأقوال والأفعال، والتقوى في تربية الأولاد والأحفاد، والتقوى في القيام والنهوض... لتحقيق أهداف الأمة في التقدم والتحرر، ونبذ الكسل والقعود والتخلف. ونموذج ذلك هو "المتّقي" في مجتمع عباد الرحمن، لأنه يقي المجتمع من شرور نفسه، ويقيه من نزواته وشهواته وأطماعه، ويتقي عذاب ربه بقيامه بطاعة الله واجتناب نواهيه، كما يتقيه بحب الناس وخدمتهم وتقديم المساعدة لهم، ويتقيه بالعلم والعمل والإنتاج والسعي للنهوض بوطنه وأمته. وهذا ما دعى إليه الرسول ﷺ بقوله: "اتقوا النار ولو بشق تمرة" (رواه البخاري)؛ فهذا توجيه نبوي نحو التكافل الاجتماعي المنبثق من مفهوم "التقوى" في صورتها الإيجابية البنّاءة، لا في صورتها السلبية التي عليها بعض المسلمين اليوم. إن وجود هذا النموذج المتقي لله ﷻ، هو وليد مجاهدة طويلة للنفس البشرية، ومراقبة دائمة لله ﷻ في الأقوال والأفعال، والظاهر والباطن، والسر والعلانية. فتبقى النفس بين خوف ورجاء، تخشى عذاب ربها وترغب في جنته بتوازن واعتدال، فلا يطغى الخوف على الرجاء، ولا الرجاء على الخوف، ليبقى "التوازن" هو السمة البارزة في سلوك الأفراد، وفي اتجاه المجتمع الإسلامي وطابعه العام المميّز له عن بقية المجتمعات الأخرى:

hiramagazine.com

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾(الفرقان:٦٥).

إن تربية النفس على "التقوى لله" ينمّي ضمير الإنسان ويقويه ويغذيه، ليقوم بدوره في تنبيه الإنسان وتوجيهه نحو الخير والصلاح والإصلاح والبناء. وهذا ما جعل الفتاة المسلمة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ترفض أن تَغُشّ الحليب بالماء في بيتها وفي جنح الظلام الساتر، خوفًا من الله وليس خوفًا من رقابة عمر وعقوبته. وهذا ما دفع أيضًا خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ أن يقول: "لو أن شاة بأرض العراق عَثَرت لخشيتُ أن يحاسبني الله عليها لِمَ لَمْ أُمهِّد لها الطريق". فالتقوى أيقظت حس عمر ﷺ وشعوره وضميره، فجعلته يشعر بمسؤوليته تجاه الإنسان والحيوان والبيئة في مشروع نهضوي كرّس حياته من أجله، أساسُه "العدل" وتقديم "الخدمات" للناس وتوفير "البنى التحتية للدولة"، مثل تمهيد الطرقات وتعبيدها، إنشاء الدواوين، وبناء بقية مؤسسات المجتمع المدني، لتقوم بدورها الفعال في نهضة الأمة وتقدمها. إنه نموذج "المتّقي" في المجتمع الإسلامي الذي يقوم على فكرة التوازن بين أشواق الروح وحاجات الحياة وضروراتها، أيْ التوازن بين الدين والدنيا فلا تميل كفة على حساب الكفة الأخرى. وهذا التوازن هو غاية "استخلاف" الإنسان في الأرض من قِبَل الله لتعميرها واستخراج كنوزها وخيراتها، واعتبار سعيه فيها عبادة لله وقربة منه سبحانه. فلا فصل في حس المسلم وشعوره بين الدين والدنيا أو عمل دنيوي وعمل أخروي، لأن الدنيا هي مادة "العبادة"، ولولاها ما كانت الآخرة والجزاء والمثوبة.

هذه هي صورة التقوى في المجتمع الإسلامي كما يقدمها القرآن الكريم؛ إيمانٌ وعمل، وخوفٌ ورجاء، وعقيدةٌ وسلوك، ودينٌ ودنيا بتوازن واعتدال، كما نصت الآية الكريمة على ذلك: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة:٢٠١).

طريق الخلاص

عندما نتحدث عن مجتمع "عباد الرحمن" فنحن لا نتحدث عن مجتمع قديم بائد ظهر في حقبة تاريخية وأدى دوره التاريخي والحضاري كأي مجتمع تاريخي ثم ولّى وزال من الوجود، وإنما نتحدث عن مبادئه الإنسانية الحية، ونظامه الواقعي المتوازن الذي نحس اليوم بحاجتنا إليه لحل مشكلاتنا المستعصية، وتوحيد صفوفنا في ظله من جديد بعد عصور الضياع والشتات. إن المسلمين اليوم، يعانون من التمزق والاستعمار والضياع، كما يعانون من خيبة الأمل والإحباط من مشاريع النهضة التي أخفقت في تحقيق آمال الأمة وطموحاتها في ردم الهوة السحيقة بين الأمة العربية والإسلامية وبين الأمم المتقدمة الأخرى. وتغير أهداف المشاريع المطروحة وتراجعها بين الأمس واليوم من مشاريع للنهضة والتقدم إلى هدف آخر، يسعى إلى تقديم مشروع حقيقي لمقاومة الاحتلال، والتحرر من الاستعمار الحديث بكل أشكاله وألوانه وآثاره.

وقد جرّبت هذه الأمة في تاريخها الحديث تجارب عدة استوحتها من هنا ومن هناك، وطبّقت نظمًا مستعارة من الشرق والغرب، فازدادت بها شقاء وتمزّقًا وجهلاً وتخلّفًا، لأنها حاولت "استنبات تلك البذور" الغريبة عن أرضها وتاريخها وحضارتها، ففشلت عند التطبيق على الرغم من الحراثة العنيفة وحماسة زراعها، لأن تربتنا النقية الأصلية رفضت قبولها وحضانتها لغرابتها عن هوية الأمة العربية والإسلامية وخصوصيتها الحضارية. ولم يبق أمام المسلمين إلا العودة إلى النموذج الإسلامي في صياغة الإنسان وبناء المجتمع على ضوء صفات "عباد الرحمن" ومقومات "المجتمع الإسلامي" الأساسية في الجمع بين العقيدة والسلوك، والعبادة والعمل، والقلب والعقل، والجدية والاتزان، والعدل والسلام، والأمن والنظام، والصبر على المكاره ومشقات العمل، ونبذ اللغو والعبثية والفساد، وهدر الجهود والطاقات البشرية في جرائم القتل والفواحش، وضياع الحقوق والتكبر وإيذاء الناس. إنها مبادئ إنسانية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، يحتاجها الناس في كل العصور لبناء حياتهم بناءً صحيحًا خاليًا من الأطماع والمصالح، وسليمًا من الهزات والكوارث والاستغلال. ولأمر يريده الله سبحانه، أن تَشْرد الأمة

hiramagazine.com

عن منهج ربها وتلوذ بالمناهج الوضعية فتذوق مرارتها ويلسعها لهيبها الكاوي المؤلم، فيكون رجوعها إليه عن تهيؤ وتفكير واستعداد وظمأ وشوق. ولا شك أبدًا أن الأمة الإسلامية صائرة إلى الإسلام، وعائدة إليه بعد أن أوصدت اليوم في وجهها الأبواب، وازدادت الضربات الاستعمارية عليها، فلم يبق لها إلا الإسلام تحتمي بحماه وتلوذ به، لتستعيد حريتها وكرامتها واستقلالها ودورها الحضاري التاريخي. وهذا يلقي بالمسؤولية الضخمة على كواهل العلماء والدعاة في هذه الحقبة التاريخية المصيرية، لأنهم الورثة الحقيقيون للأنبياء؛ ورثوا العلم والدعوة والرسالة والصبر على مشاق الطريق وأشواكه، فهم يحملون لهذه الأمة العطشى المتعبة الزاد بيد، والعلاج باليد الأخرى... إنها مسؤولية ضخمة ملقاة عليهم، تقتضي أن يكونوا هم أولاً نماذج حية لعباد الرحمن ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾(الفرقان:٦٣)... وأن يتمثلوا صفاتهم -التي تقدم ذكرها- واقعًا لا خيالاً؛ فالناس بفطرتهم السليمة يتأثرون بالواقع الحي أكثر من تأثرهم بالنظريات المثالية المجردة... وأن تكون حياتهم تأويلاً عمليًا لما يدعون إليه في صفاء عقيدتهم ونقائها واستقامة سلوكهم وطهارته، وفي خوفهم وخشيتهم من الله، وفي غايتهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، وفي جمعهم بين العقيدة والسلوك، وفي التوازن بين الدين والدنيا في خطابهم واعتمادهم العقلانية في خطاب الناس والبعد عن الخرافات والحكايات المضرة بالعقول والعلاقات الإنسانية، والحرص على النهوض بالوطن والأمة، وبث روح ثقافة المقاومة للاحتلال والحض على العمل وبعث الأمل فيها، ومحاربة الجهل وتيارات الخيانة والإرجاف والإحباط والتيئيس فيها وغير ذلك.

وتعظم مشكلتنا وتتفاقم حين يغيب هذا النموذج المطلوب والمثالُ والقدوةُ عن حياتنا الإسلامية -إلا نادرًا- فلا نرى إلا صورًا مشوهة عن الإسلام استمدت ثقافتها وعلمها ونمط حياتها من عصور الضعف والتخلف، فلم تعد إلى النبع الصافي الخالد "القرآن الكريم" الذي يهدي للتي هي أقوم، تستمد منه عقيدتها

إن أثر "توحيد العقيدة لله" موجود في "توحيد الاتجاه" أيضًا في المجتمع الإسلامي، فالكل فيه "عباد لله" يخضعون له وينقادون، ويتجهون إليه ويستمدون منه منهج حياتهم... وحين يكونون كذلك يستحقون رحمته ورأفته.

حراء

وفكرها وسلوكها وأنماط حياتها ونماذج قدوتها، فعاشت في حيرة واضطراب وتشويه وتناقض. ووقعت الطامة الكبرى حين اعتمدت في خطابها للناس على هذه الثقافة الهشة المبنية على الاستنساخ من غير وعي وتصويب واختيار للمناسب والملائم. وأغلب المدارس والجامعات الإسلامية، تقدم الإسلام لا بروحه الإيجابية الحضارية، وإنما بروح سلبية وأدوات معرفية متخلفة. لذلك غابت الصورة الحقيقية للمجتمع الإسلامي بمقوماته الأصلية، وأهدافه السامية النبيلة، فلم نعد نجني منه الثمار اليانعة الجديدة كتلك التي أينعت في دمشق وبغداد والقاهرة والأندلس، والتي قطفنا منها علمًا وحضارة وعزًا ومكانة وسيادة في تلك الأيام الماضية.

نحن بحاجة اليوم إلى تقويم حياتنا الإسلامية بغية التصويب والتسديد للوصول إلى "الصواب" في مسار الأفراد، وفي اتجاه المجتمع والأمة. والخطوة التي علينا أن نبتدئ منها هي العودة إلى النبع الصافي والنور الفياض وأعني بهما "الكتاب والسنة"، فهما الملاذ والأمان وحبل النجاة من الآراء الدخيلة، والأهواء الممزقة للصف المرصوص والخرافات المذلة للعقول والنفوس. إن طريق الخلاص من هذا التيه وسنوات الضياع والتشتت، لا يكون إلا بإحياء نموذج "عباد الرحمن"، والتحلي بصفاته السامية الحضارية على كافة أصعدة الحياة حتى تصحو الأمة من غفوتها التي طالت كثيرًا، وتنهض من كبوتها لتستأنف مسيرتها الحضارية وتجربتها الإنسانية الرائدة. ■

(*) جامعة حلب، كلية الآداب والشريعة / سوريا.

hiramagazine.com

إيمان أحمد*

الكيمياء الخضراء
حتمية القرن الواحد والعشرين

ما يشهده العالم اليوم من تلوث بأشكاله المختلفة؛ من انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون إلى استنزاف طبقة الأوزون، إلى الاحتباس الحراري والتغير المناخي وما نتج عنه من كوارث طبيعية، جعل الباحثين يدرسون كيفية التخفيف من أضرار الملوثات، وخاصة تلك المتعلقة بالصناعات الكيميائية، ووضع تشريعات وقوانين لاستخدام أمن للمواد الكيميائية. يعد الكتاب المنشور لـ"راشيل كارسن" تحت عنوان "الربيع الصامت" سنة ١٩٦٢، جرَس إنذار مبكر للمجتمع الكيميائي للأخذ بعين الاعتبار سُمِّيّة المركبات الكيميائية وخطرها على الإنسان وعلى الأنظمة البيئية، تقول راشيل كارسن في كتابها: "إن المخاطرة بالكثير في إطار جهودنا المبذولة لإخضاع الطبيعة لرضانا، والفشل في تحقيق هدفنا، سيكون هو السخرية الأخيرة، ومع ذلك يبدو أن هذا هو وضعنا، وهذه هي الحقيقة التي نادرًا ما تُذكر

ولكنها موجودة، هي أن الطبيعة لا يمكن إخضاعها". وكان ذلك منشأ الحركات والمنظمات المنادية بحماية البيئة، لكن كل الجهود والطرق المقترحة لم تكن كافية للحد من الوضع الكارثي الذي ينذر بأن الأرض لن تكون مكانًا آمنًا للعيش خلال هذه الألفية. إن الفجوة العميقة الموجودة بين الوضع البيئي والوضع الصناعي والاقتصادي، لا يمكن الحد منها وتقليصها إلا من خلال تطوير وتبنّي علم جديد سمي بـ"الكيمياء الخضراء"، الذي من شأنه البحث عن وسائل نظيفة وصديقة للبيئة للحيلولة دون زيادة تردي الوضع البيئي. وإن المنتظر من هذا العلم حاليًّا، توفير هذه الاحتياجات دون الإضرار بالبيئة والإنسان.

المرحلة الجنينية

مرت الكيمياء الخضراء بمراحل عديدة، لكن قبل ظهورها الفعلي في تسعينيات القرن الماضي، سبقها الكثير من الدراسات التي شكلت الأساسات المتينة التي بني عليها هذا العلم الجديد، والتي نرى بأنها كانت البدايات المبكرة للكيمياء الخضراء.

إن ظهور فرع جديد في الكيمياء المسمى بـ"الكيمياء الضوئية" على يد العالم "جياكومو سيامسيان" ودراساته حول استبدال المواد الكيميائية المستخدمة في بدء التفاعلات بالأشعة الضوئية، كان تحديًا في نهاية القرن التاسع عشر، إذ التوقيت كان مبكرًا جدًّا لتؤخذ دراساته بعين الاعتبار في تدريس وتطبيقات الكيمياء. ففي رسالة له إلى الجمعية الكيميائية الفرنسية سنة ١٩٠٨ يقول سيامسيان: "إنه لا مجال للشك في أن الإنسان يمكنه القيام بالتفاعلات الكيميائية في المختبر كما تقوم بها الطبيعة وفي شروط مشابهة، في حين يظن المجتمع الكيميائي بأن إنجازات الكيمياء الحديثة تم الوصول إليها بعرض مفرط للقوة"... وليكون منصفًا يضيف: "إن هذا الاعتراض على استخدام الكيماويات والطاقة الكبيرة لحدوث التفاعلات لهو اعتراض مشروع، حيث إن استخدام التسخين عند درجات حرارة مرتفعة، واستعمال مواد خطرة، لا يمكن تجنبه في المختبرات الكيميائية حاليًّا، على عكس ما يحدث في عالمنا وخاصة

إن المجتمع الكيميائي يعلق آمالاً كبيرة على الكيمياء الخضراء، وذلك بتغيير النظرة التقليدية للكيمياء على أنها مصدر للتلوث، بل ورقة رابحة يراهن عليها الكيميائيون اليوم لضمان بيئة أكثر أمانًا للعيش.

في النباتات التي تضرب لنا مثلاً رائعًا في الحصول على نتائج مبهرة في هذا المجال، وذلك بتصنيع مركبات كيميائية ابتداء من طرق ومواد بسيطة كما يبدو". يقول أيضًا في هذا الصدد: "إن فهم آلية وكيفية حدوث التفاعلات الكيميائية في النباتات، سيكون من شأنه إحداث ثورة وتقدم في أنشطة الصناعات الكيميائية". هذا العالِم كان سابقًا لعصره، وتبنى مبادئ الكيمياء الخضراء -وهو الملقب بأبي الكيمياء الضوئية- كان يرى بأنه يجب أن نحاكي التفاعلات الكيميائية كما تحدث في الطبيعة، وقد نجح في تصنيع العديد من المركبات الكيميائية ضوئيًّا. لكن يبدو أن العالَم -والمجتمع الكيميائي بالخصوص- انتظر مدة قرن وأربعة سنوات، ليعيد النظر في سياسات التصنيع والاستهلاك طالما اعتُبرت الأرض كمصدر أساسي للثروات غير النافذة، وكمحطةٍ لتخزين المخلفات في آن واحد، دون مراعاة العواقب الوخيمة الناتجة عن ذلك.

البدايات الأولى

يعود ظهور أولى أفكار ومبادئ الكيمياء الخضراء إلى بداية تسعينيات القرن الماضي، فلم يظهر مسمى "الكيمياء الخضراء" في الكتب والأدبيات قبل إثني وعشرين سنة من الآن. ويعتبر مؤتمر "منع التلوث" المنعقد سنة ١٩٩٠ في الولايات المتحدة الأمريكية، نقطة انطلاق للكيمياء الخضراء وتطبيقاتها، حيث كانت أهم المشاكل المطروحة هي كيفية الحد من التلوث بأشكاله المختلفة. ومن بين النتائج التي خلُص إليها الباحثون أن: "أفضل طريقة للقضاء على التلوث، هو القضاء عليه خلال أو بعد تشكله في أول ظهور قبل انتقاله إلى البيئة حيث يصبح من الصعب القضاء عليه".

hiramagazine.com

وهـذا مـا يمثـل نقطة اختلاف بـارزة ما بين كيميـاء البيئة والكيمياء الخضراء. وفي سنة ١٩٩١ بدأ اعتماد برنامج وسياسـات الكيميـاء الخضـراء فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، أمـا في بداية النصف الأول من سـنة ١٩٩٠، أطلقـت كل مـن إيطاليـا والمملكـة المتحـدة برامجهـا الأولـى، بالإضافـة إلـى اليابـان التي انضمـت إلى الدول السابقة خلال النصف الثاني من نفس العشرية.

لقد وضـع المختصون في هذا المجال تعريفًا شاملاً للكيميـاء الخضـراء، بأنهـا تحقيـق وتصميـم المُركَّبـات والطـرق الكيميائيـة للتخفيـف أو منـع اسـتخدام وإنتاج مواد خطرة.

ربمـا يتسـائل البعـض لمـاذا هـذا التوقيـت المتأخـر لظهـور الكيميـاء الخضـراء؟ والتفسـير الوحيـد هـو أن التشـريعات والقوانين التي وُضعت لاستخدامات المواد الكيميائية لم تكن موجودة قبل ستينيات القرن الماضي، وكذلـك المعرفـة الدقيقـة ببنيـة المركبـات الكيميائيـة وسُـمِّيَّتها، وإمكانيـة تصميـم طـرق وجزيئـات كيميائيـة خضـراء صديقـة للبيئـة، لـم تكن مكتملة كمـا هي اليوم؛ حيـث أصبـح علـم الكيميـاء بكل فروعـه علمًـا ناضجًا، والمكتبـات العلميـة اليـوم تتوفـر علـى عـدد كبيـر مـن المراجـع والأبحاث العلمية التي تدرس سُمِّية المركبات الكيميائيـة مـا يجعل تجنب اسـتخداماتها ممكنًا. كما أن توجـه المجتمـع الكيميائي نحـو إيجـاد طـرق كيميائيـة لمعالجـة النفايـات وتخفيـف الأثر البيئي للملوثات، لم يكـن دائمًـا الحـلّ الأقـل تكلفة مـن الناحيـة الاقتصادية. هـذه الإشـكالية رجحـت كثيـرًا الكفـةَ لصالـح الكيميـاء الخضراء ومبادئها التي بإمكانها تحقيق "تصنيـع كيميائي مثالـي" كما يشـير إلى ذلـك "جايمس كلارك" في إحدى ورقاته العلمية المنشورة في مجلة الكيمياء الخضراء.

المبادئ ١٢ للكيمياء الخضراء

إن الحاجـة الملحـة لتحقيـق تفاعـلات وطرائـق كيميائية أكثر أمانًا وأقل كلفة من الناحية الاقتصادية وصديقة للبيئة فـي آن واحـد، أخضعـت الكيميـاء -بمختلـف فروعها- لتحسـينات وتعديلات لم تطرأ عليها من قبلُ على مدى تاريخهـا الحافـل، فاتجـه المجتمـع الكيميائـي إلى تبنّي مبادئ الكيمياء الخضراء، والتي لخصها الكيميائي "بول أناسـتاس" فـي ١٢ مبـدءًا فـي كتابـه "الكيميـاء الخضـراء نظرية وتطبيق".

١- مـن الأفضـل المنـع أو التقليـل مـن المخلفـات على معالجتها والتخلص منها بعد تشكيلها.

٢- مـن الأفضـل تصميـم طـرق التحضير بصـورة تجعـل جميـع المواد المتفاعلة تدخل في تركيب الناتج المراد تحضيره.

٣- يجـب تصميـم طرق تحضير آمنـة، بحيث تكون المواد المسـتخدمة أو المخلفة منخفضة السُـمّية أو غير سامّة بالنسبة للإنسان والبيئة.

٤- يجـب أن يكـون المركـب الكيميائـي الناتـج، ذا كفاءة عالية وذا سُمّية منخفضة.

٥- يجب الاستغناء عن مواد مثل المذيبات العضوية عامل الاستخلاص أو استخدام مواد أخرى أقل سُمّية.

٦- اسـتخدام الطاقـة يجـب أن يراعـى فيـه الجانـب البيئـي والاقتصـادي، ويجـب أن يقلـل منـه أو القيـام بالتفاعلات في درجات الحرارة الاعتيادية.

٧- يفضـل اسـتخدام المادة الأوليـة القابلة للتجديد، على استخدام مواد غير متجددة.

٨- يجـب التقليـل مـن عمليـات الاشـتقاق علـى الجزيئـات والتغييرات في الطرائق الفيزيائية والكيميائية، لأن ذلك يُنتج مخلفات ضارة.

٩- يجب أن يكون عامل الحفز اختياريًّا ومتخصصًا بشـكل كبيـر أفضـل مـن اسـتخدام كميـات متكافئة للمتفاعلات.

١٠- يجـب أن تصمـم المركبـات المنتجـة بحيث لا تتراكـم فـي المحيط بعـد أداء وظيفتها وتتفكك إلى مواد بسيطة غير مضرة بالبيئة.

١١- يجـب تطوير طرائق التحليل الكيميائي لمراقبة التفاعلات لحظيًّا والتحكم بها قبل تشكل أيّ مادة سامة أو خطرة.

١٢- يجـب أن لا تكـون المـواد المسـتخدمة أو المخلفـة خـلال العمليـة الكيميائية خطـرة أو ينجم عنها حوادث كالانفجار أو الحرائق.

hiramagazine.com

مستقبل وتحديات

حققت الكيمياء الخضراء تقدّمًا ملحوظًا في السنوات الأخيرة، حيث أصبح من الممكن استبدال المذيبات العضوية التقليدية في التصنيع وطرق الفصل الكيميائي بمذيبات خضراء صديقة للبيئة. ومن الأعمال المتميزة في هذا المجال، استخدام ثاني أكسيد الكربون في الحالة المائعة عند درجة الحرارة فوق الحرجة في التصنيع والفصل الكيميائي. ومن أهم مميزاته أنه لا يتأكسد في هذه الظروف، مما يجعل استخدامه في تفاعلات الأكسدة ذا قيمة كبيرة، استخدام المخلفات النباتية لإنتاج مادة الليجنين المستخدمة في العديد من تطبيقات الكيمياء. وبذلك نجعل مخلفات اليوم، مصادر لمواد أولية آمنة لصناعات الغد، كما نضيف جهود الكيميائيين الباحثين في تطوير طرق كيميائية نظيفة، كتقنية الميكروويف، والموجات فوق الصوتية في التصنيع الكيميائي. هذه التقنيات تعمل على تحقيق مبدأ اقتصاد الذرات والفعالية الذرية، كما أن التفاعلات تتم في وقت قصير -أو يمكن القول في مدة خيالية من دقيقة إلى عشر دقائق- ويكون مردود التفاعل كبيرًا بالمقارنة مع الطرق التقليدية. التأسيس لسياسة تعليمية لتعليم الكيمياء الخضراء في الجامعات، وإدخالها في البحوث العلمية الأكاديمية، وربط هذه الأخيرة مع الاقتصاد ومتطلبات الصناعة والسوق، بالإضافة إلى إيجاد بدائل صديقة للبيئة ذات كفاءة عالية تساعد على التخلص النهائي من المواد الكيميائية الخطرة وتراعي -في نفس الوقت- الجانب الاقتصادي، وهذا كله يعد من أهم التحديات التي يواجهها الكيميائيون في هذا المجال.

الحاجة إلى محاكاة الطبيعة

لقد كانت الطرائق الكيميائية ومخلفاتها تعرّض الإنسان والبيئة لمخاطر لا تعد ولا تحصى. ليس العيب في المركبات الكيميائية كونها خطرة، لكن العيب في طرق تصنيعها واستخداماتها ومصيرها النهائي في الطبيعة كمخلفات. المعادن الثقيلة والمركبات الكيميائية الموجودة في الطبيعة، لم تشكل يومًا خطرًا على الإنسان والبيئة إلا خلال المئتَي سنة الأخيرة، حيث أصبحت هذه العناصر من أهم المخلفات الصناعية ومن أخطر الملوثات، ذلك كله بسبب طريقة تعامل الإنسان مع هذه المواد، إذ إنه أوجد طرقًا مختلفة لتصنيع المواد الكيميائية من البنى البسيطة إلى المعقدة. وقد كان ذلك تطورًا وتحديًا يشهد له، لكن بأسلوب مختلف عن ذلك الأسلوب المثالي المتقن الذي تتبعه الطبيعة.

إن التفاعلات والتحولات الكيميائية التي تحدث في الطبيعة -منذ أن خلق الله الأرض- صممها الله ﷻ بطريقة قمة في الإبداع والإتقان كما يقول ﷻ في القرآن المجيد: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(النمل:٨٨). من هنا وجب التأمل في خلق الله ﷻ واستخلاص العِبَر من أدق المخلوقات من البكتيريا إلى النباتات -وهي مثال للمختبرات الخضراء- إلى الشمس أشهرِ مفاعل نووي طبيعي خلقه الله ﷻ.

من أجل غدٍ أفضل، شهد العالم قفزة نوعية في المجال العلمي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ حيث سعى العلماء والباحثون لتسخير العلوم وشحذ الطاقات لتطوير التكنولوجيا وتحقيق وسائل العيش المريحة. ومن أجل غدٍ أفضل لابد من إعادة النظر في الطرائق الكيميائية وجعلها أكثر تواؤمًا مع البيئة، وكما قال نيوري: "يجب أن تكون آمنة صديقة للبيئة ومعقولة من ناحية تكلفة المواد الأولية والطاقة المستخدمة، ودون إعطاء أهمية لما يسمى الآن بالكيمياء الخضراء، فإن الصناعات الكيميائية ستصبح غير آمنة خلال القرن الحالي".

تبدو الكيمياء الخضراء شديدة المثالية والجمال، وهذا ما يجعل المجتمع الكيميائي يعيد رسم ملامح جديدة للكيمياء من خلال الكيمياء الخضراء، وذلك بتحقيق تطبيقات أنيقة للعمليات الكيميائية تترافق فيها الفعالية والأمان. إن المجتمع الكيميائي يعلق آمالاً كبيرة على الكيمياء الخضراء، وذلك بتغيير النظرة التقليدية للكيمياء على أنها مصدر للتلوث، بل ورقة رابحة يراهن عليها الكيميائيون اليوم لضمان بيئة أكثر أمانًا للعيش. ■

(*) كاتبة وباحثة جزائرية.

hiramagazine.com

أ.د. عصام أحمد البشير*

الأمن في السنة النبوية

إن الإسلام رفع راية السلام منذ اللحظة الأولى لميلاده، ولم يعلن حربًا إلا إذا كان قد دُفع إليها دفعًا. ولقد ظل ثلاث عشرة سنة بين ربوع مكة محاولاً نشر دعوته في ظل السلام فما استطاع، واضطهد أتباعه اضطهادًا لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، ولكنه -مع هذا- كان يأمر أتباعه بالجنوح إلى السلم والأخذ بالعفو والإعراض عن الجاهلين. فليس هناك دين دعا إلى السلام كما دعا إليه الإسلام، ولا مذهب من المذاهب القديمة أو الحديثة أسهم في تدعيم أسس السلام كما أسهم الإسلام. فالسلام في الأرض هو هدفه ودعوته، وأنشودة رسالته، ولم تكن حروبه في الواقع إلا وسيلة لإقرار هذا السلام في الأرض.

الأمن منظومة متكاملة

إن الأمن معنى شامل في حياة الإنسان، ولا يتوفر الأمن للإنسان بمجرد ضمان أمنه على حياته فحسب، فهو كذلك يحتاج إلى الأمن على عقيدته التي يؤمن بها، وعلى هويته الفكرية والثقافية، وعلى موارد حياته المادية.

والشعوب والدول تحتاج -فضلاً عن الحفاظ على أمنها الخارجي- إلى ضمان أمنها السياسي والاجتماعي والاقتصادي ودون أن يتحقق لها ذلك لا تتمكن من النهوض والتطلع إلى المستقبل، بل يظل الخوف مُهيمنًا على خطواتها ومقيِّدًا لتطلعاتها.

ولذلك، فإن تكامل عناصر الأمن في مجتمع معين، هو البداية الحقيقية للمستقبل الأفضل... وتوفير عناصر الأمن الديني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي وبقاؤه في المجتمع، ضمان له لاستعادة أمنه الخارجي حتى لو فقده بصفة مؤقتة أو عارضة.

ويمثل التزام الإسلام عقيدةً وشريعة وقيمًا وأصولاً اجتماعية، أهم عناصر الأمن في المجتمعات الإسلامية. يقول الكاتب الأمريكي برنارد لويس: إن الدولة

الإسلامية قد تسقط أو تزول كدولة بالغزو العسكري، ولكن المجتمع يظل في حياته محكومًا بقوانينه الإسلامية في معاملاته وعلاقاته -ربما عشرات السنين- حتى تقوم الدولة من جديد، وهي تجربة مرت بها الدول الإسلامية التي خضعت للاستعمار عشرات السنين.

الأمن في خبرة الدولة النبوية

كيف كان الأمن للناس جميعًا في دولة الإسلام منذ ظهرت إلى الوجود في المدينة المنورة؟

لقد كان الأمن بمفهومه الشامل، هو أول أهداف الدولة منذ قيامها. فقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، إذ كان الأولون قد تركوا ديارهم وأموالهم ليكونوا من رعايا ومواطني أول دولة إسلامية، وكانت المدينة بالنسبة لهم دار غربة في أول الأمر، وكان موقف انصار رسول الله ﷺ بالنسبة لإخوانهم في الدين، معبرًا عن أخوة الإيمان والإسلام، وعن النفوس الزكية بخلق الإسلام.

فتح مكة مثالٌ ساطعٌ على مركزية الأمن

نجد مثالاً ساطعًا في السنة المطهرة لقيمة الأمن في الإسلام. فقد أقام الرسول ﷺ الدولة الإسلامية الأولى في المدينة، ولم تَسْلَم هذه الدولة الناشئة من مكايد المشركين واليهود، حيث دارت المعارك سجالاً بين دولة الحق وشراذم الباطل وأعوانهم، وكتب الله النصر للمسلمين في هذه المعارك. وظل السِّلْم بين دولة الإسلام الأولى وبين مشركي مكة محكومًا بهدنة الحديبية التي عقدها الرسول ﷺ مع المشركين في مكة، حتى نقضوا عهدها وانتهكوا شروطها بإعانتهم حلفاءهم على حلفاء النبي ﷺ من بني خزاعة، فاستنصر بنو خزاعة رسول الله ﷺ فنصرهم وفاءً بالعهد. وقبل أن يدخل الرسول ﷺ إلى مكة، جاءه نفر من وجهاء قريش فأعلنوا إسلامهم وكان منهم بعض أعداء الإسلام كأبي سفيان بن حرب، وعبد الله بن أمية، ولما أسلموا كانت لهم مواقف ومشاهد تكفِّر عنهم ماضيهم في الجاهلية.

وعند فتح مكة على أيدي من آذتهم قريش ومشركوها أشد الأذى، قال سعد بن عبادة ﷺ حامل راية الأنصار في جيش المسلمين: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال الرسول ﷺ: "كذب سعد... ولكن

إن القواعد التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم في المجتمع المسلم، تتميز بالسماحة واليسر، وحفظ الحقوق، وتجنب الظلم لمجرد الاختلاف في الدين. فهناك حد أدنى يجب الحفاظ عليه حتى في حالة العداء أو القتال، وهو الكرامة التي وهبها الله لبني آدم.

حراء

هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة" (رواه البخاري)، وأخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس (وقيل: دفعها إلى الزبير بن العوام). ودخل الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم مكة خاشعًا شاكرًا لله. ولم ترق دماء كثيرة في فتح مكة، فقد أعطى الرسول ﷺ الأمان لأهل مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" (رواه أبو داود). وهكذا كان الأمان شاملاً لمن لم يقاتل أو لزم داره، أو دخل دار أبي سفيان، أو البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا.

وحين تم النصر والفتح، عفا الرسول ﷺ عن أهل مكة عندما اجتمعوا إليه قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم، فقال الرسول ﷺ: "ما تظنون أني فاعل بكم؟" فقالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال الرسول ﷺ: "اذهبوا فأنتم الطلقاء". وذكّر الرسول ﷺ المسلمين المنتصرين بحرمة مكة، وحرَّم القتل والسبي فيها، وأبقى على الناس أموالهم، وحفظ حقوقهم، حتى أدى مفاتيح البيت الحرام إلى من تحملوا شرف الحفاظ عليها.

وهكذا كان الأمان للجميع، وكان الأمن الشامل للناس في عهد النبوة، سواء في دولة الإسلام في المدينة، أم في مكة التي دخل أهلها بعد الفتح في دين الله أفواجًا، وأصبحت أقدس مدينة في تاريخ الإسلام والحرم الأول للمسلمين، الذي جعله الله مثابةً للناس وأمنًا.

الأمن حق لغير المسلمين أيضًا في الدولة النبوية

إن الإسلام يتميز في خصوص التعامل مع غير المسلمين بأمرين مهمين:

الأول: أن له نظامًا يعدّ جزءًا لا يتجزأ من شريعته المتكاملة، وهو نظام للمسلمين يعملون به دائمًا

hiramagazine.com

ويلزمهم بحكم عقيدتهم. ولم يترك الإسلام العلاقة مع غير المسلمين لتقلبات المصالح والأهواء، ولنزعات التعصب العرقي أو اللوني، أو الديني. ولم يتغافل الإسلام عن وجود "الآخر" وأهمية التعامل معه، فوضع القواعد التي تضمن حق المسلمين في المجتمع، وحق الآخرين الذين يعايشونهم دائمًا أو بصفة مؤقتة، ولم يكن ذلك معهودًا في الممالك والإمبراطوريات القديمة قبل الإسلام.

الثاني: أن القواعد التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم في المجتمع المسلم، تتميز بالسماحة واليسر، وحفظ الحقوق، وتجنب الظلم لمجرد الاختلاف في الدين. فهناك حد أدنى يجب الحفاظ عليه حتى في حالة العداء أو القتال، وهو الكرامة التي وهبها الله لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(الإسراء:٧٠).

ولذا، لم تقتصر الشريعة الإسلامية على حماية من يعيش في مجتمع المسلمين في حياته الدائمة والمستقرة بين أسرته، وفي مقر عمله الذي يتكسب منه -وهي حالة الذميين- وإنما تجاوزت ذلك إلى حماية المخالف في الدين، الذي يحضر إلى بلاد المسلمين للعمل أو التجارة أو لشأن من الشؤون المباحة، بإذنٍ من ولي الأمر فيها، ويكون حضوره مؤقتًا بانتهاء العمل أو قضاء المصلحة التي يبتغيها. لقد وفرت الشريعة الإسلامية حماية للمستأمن الذي يفد إلى بلاد الإسلام لشأن من الشؤون المباحة، ويدخل إلى ديارنا بإذن منّا، ومعرفتنا بحقيقة أمره، واطمئناننا إلى مقاصده المباحة... إذ يجوز للإمام أو نائبه أن يعطي الأمان لغير المسلمين على أنفسهم وأموالهم لمصلحة تعود على المسلمين وهو أمر واقع في العصر الحديث.

وإذا وقع الأمان بشروطه، وجب على المسلمين جميعًا الوفاء به للمؤمَّنين، فلا يجوز أسرهم ولا أخذ شيء من مالهم إلا بإذن شرعي، ولا أذيتهم بغير وجه شرعي. وإذا مات المؤمَّن في دار الإسلام فماله لوارثه إن كان معه، وإذا لم يكن وارثه معه أُرسل إليه المال. وعقد الأمان في الشريعة الإسلامية يمثل التسامح الإسلامي على حقيقته، في التعامل مع غير المسلمين من خلال علاقات متنوعة مع الناس جميعًا. وفي الوقت الحاضر، يتم إعطاء الأجنبي إذنًا بالدخول والإقامة بحسب الأنظمة المتبعة في الدول الإسلامية لدخول الأجانب.

ومتى منح الإمام الأمانَ لغير المسلم، وجب على المسلمين جميعًا احترامه وعدم انتهاكه، لأن الإمام أو نائبه، صاحب الحق في ذلك، فيثبت الأمن للمستأمَن على حياته وماله وعرضه، ويحرم على المسلم التعرض له في نفسه وماله وولده، ويسري الأمان إلى الزوجة. فتجب لهم العصمة في دار الإسلام، وتجري على المستأمنين أحكام الإسلام في أثناء إقامتهم -في حدود ما خوطب به المسلمون من أحكام الشريعة- وإن كان ذلك لا يجعلهم من أهل دار الإسلام، لأنهم يقضون حاجة مؤقتة ثم يرجعون إلى ديارهم.

وثيقة المدينة دستور النبي لدولته

إذن لم يقتصر الأمن على المسلمين، بل إن غير المسلمين كان لهم نصيبهم من الأمن على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وقد تم ذلك بـ"الصحيفة" التي كانت أول وثيقة تنظِّم أمور المجتمع المسلم وعلاقات أفراده من المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب.

ومن أهم مبادئ تلك الصحيفة أو الوثيقة، أن ذمة الله واحدة، يجير على المسلمين أدناهم، والمسلمون بعضهم موَالي بعض من دون الناس، وأن من تبع المؤمنين من يهود، فإن لهم النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. ونظمت الوثيقة النبوية التعاون بين المسلمين وغيرهم، فينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين، مع أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وأوردت الوثيقة أنه لا يخرج أحد من يهود المدينة إلا بإذن الرسول ﷺ. وأن بين أهلها من اليهود والمسلمين النصر على من دَاهم يثرب، ومعنى ذلك التعاون في رد العدوان عن الجميع. وثمة نص واضح وصريح في الوثيقة يتعلق بالأمن، وهو من بين بنودها العامة: "من خرج؛ آمن، ومن قعد

hiramagazine.com

بالمدينة؛ آمن.. إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله". وبمقتضى هذا الشرط في العهد النبوي، يتحقق الأمن لجميع المسلمين وغير المسلمين، في خروجهم وبقائهم من غير ظلم ولا إثم. كان هذا هو أمن المدينة عند قيام الدولة الإسلامية فيها، وقد أمن المسلمون على دينهم، وعلى أنفسهم وأعراضهم وأموالهم. وكان هذا الأمن حقًّا أيضًا لغير المسلمين من أهل الكتاب على دينهم ودنياهم، ما داموا مسالمين، وكانت أنفسهم وأعراضهم وأموالهم مصونة بذمة الإسلام، حتى ظهر الإثم والغدر بالعهود منهم، وهددوا أمن المسلمين في المدينة بمعاونة العدو، ونشروا الأكاذيب عن المسلمين، ولم يكن بد من حفظ أمن المجتمع المسلم بطردهم، وإنفاذ حكم الله فيهم طائفة بعد أخرى.

الحفاظ على الأمن من الضرورات الخمس

يحتاج الفرد في حياته إلى الأمن على نفسه ودينه وعرضه وماله، وقد جعلت الشريعة الإسلامية الحفاظ على هذه الضروريات من أهم مقاصدها. إن الأمن الفردي -أي أمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه- ضد أي اعتداء يقع عليه من غيره، مكفول عن طريق تطبيق الأحكام الشرعية التي تحمي الأنفس والأعراض والأموال.

فالعدوان كما يقع من فرد على آخر داخل المجتمع المسلم، قد يقع على المجتمع المسلم جُمْلةً من مجتمع آخر، وقد تتعدد صور هذا العدوان الذي يهدد الدولة الإسلامية والمجتمع المسلم.

ومن واجب ولي الأمر أن ينهض بحماية المسلمين ومصالحهم ومجتمعهم من كل صور التهديد والعدوان، حتى يتحقق للمجتمع المسلم أمنه في جميع مجالات حياته. وفي التنظيم الدولي الحديث، حيث يكون المجتمع في رعاية دولة لها حدودها ولها سيادتها على إقليمها، يكون الأمن الوطني من أول مهام ولي أمر المسلمين في الدولة الإسلامية. وتكفل المواثيق الدولية -ومنها ميثاق الأمم المتحدة- لكل دولة الحق في العيش آمنة داخل حدودها، والحقَّ في رد العدوان عنها إذا وقع من دولة أخرى أو جماعة مسلحة، ولا يَسمح ميثاقُ الأمم المتحدة بالعدوان ولا بالاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، ولا بالأعمال العدوانية الموجهة ضد أي دولة، ويعطي الحقَّ في رد العدوان عن الدولة المعتدى عليها بكل الوسائل، بما في ذلك تعاون الدول الأخرى عسكريًّا في التصدي للعدوان الذي يقع على دولة عضو في الأمم المتحدة طبقًا للفصل السابع من الميثاق. ولكن المواثيق الدولية وحدها لا تكفي من وجهة النظر الإسلامية، فلابد أن يهيئ وليُّ الأمر أسباب القوة التي تحمي الدولة الإسلامية وأفرادها، وتمنع انتهاك حدودها أو الإضرار بمصالحها، وهذا ما أوجبه الله تعالى على الدولة المسلمة والمجتمع المسلم بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال:٦٠). فالأمن الوطني مسؤولية إسلامية.

وهذه الأهمية البالغة للأمن في المجتمع المسلم، وكون توافره العامل المهم في سعي المجتمع إلى النمو والارتقاء في جميع المجالات، هي التي جعلت الإخلال بالأمن محاربة لله ورسوله، وكانت عقوبته من أشد الحدود صرامة وحسمًا في الإسلام، إذ إن عقوبة هذا الإخلال الخطير، تتراوح بين القتل والصلب، وبين قطع الأطراف والنفي، وكلها عقوبات جسمية جعلها الشارع للزجر عن ارتكاب الجريمة، وللردع عند ارتكابها، فهي لشدتها تؤدي إلى الوقاية قبل ارتكابها، وإلى العقاب العادل عند وقوعها.

الأمن الاجتماعي عافية بنيان المجتمع

ويحتاج المجتمع المسلم إلى الأمن الاجتماعي وهو تعبير حديث، لكنه يعبر عن معنى إسلامي أصيل، وهو أن يكون المجتمع المسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا. ونجد هذا المعنى واضحًا أشد الوضوح في الحديث الشريف: "مَثَل المسلمين في توادّهم وتراحمهم كمَثَل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى" (متفق عليه).

وقد أمر الله المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى،

hiramagazine.com

ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٢)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠). وهذه الأخوة التي جعلها الله بين المؤمنين قرينة الولاية المتبادلة بينهم: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(التوبة:٧١)، وقد تضمن تشريع الإسلام ما يكفل قيام الأخوة والولاية المتبادلة.

الأمن الاجتماعي على سُلَّم أولويات الدعوة والسعي

إن الأمن مطلب للإنسان الذي كرمه الله، وهو نعمة تعمّ الناس جميعًا في المجتمع المسلم. فأحكام الإسلام المنزلة من الله تعالى، والمبينة بسنة رسوله ﷺ، تدل على أن أمن غير المسلم -الذي يعيش في المجتمع المسلم- على نفسه وماله وعرضه، مضمون ما دام ملتزمًا بما تقضي به الأحكام، لا يُمس إلا بحق. وهي أحكام واضحة أوجبها الإسلام، ولم توجبها المصالح المتبادلة بين المسلمين وغير المسلمين، ولم تلزمنا بها قواعد القانون الدولي أو المعاهدات بين الدول الإسلامية وغيرها؛ لأن هذه الأحكام جانب مهم من شريعة الإسلام الكاملة، يجب على الدولة الإسلامية تطبيقه والعمل به، فهو واجب ديني قبل أن يكون مصلحة سياسية أو التزامًا دوليًا.

إن الإسلام يقيم مجتمعًا إنسانيًا راقيًا تحكمه شريعة إلهية، وهو لذلك يقيم العلاقة بين الناس جميعًا على أسس وطيدة من العدل والبر والرحمة. ونجد -كما سبق معنا- في القرآن الكريم آيات عديدة، وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة، تؤسس كلها لكرامة الإنسان من حيث كونه إنسانًا، وتقرر كلها حق البشر -على اختلاف الأجناس والألوان والمذاهب والعقائد- في حياة آمنة مستقرة. فلنجعلْ هذا المنزعَ الإنساني النبيل في صدارة خطابنا الإسلامي في هذا الزمان، ولنجعله على رأس أولويات دعوتنا وسعينا لإصلاح مجتمعاتنا... والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به جل وعلا. ■

(*) رئيس مجمع الفقه الإسلامي / السودان.

هالك الروح

تمضي إلى أين؟
تقطع الفيافي والقفار،
والتيه والضياع...
يا قاتل نفسه،
يا هالك روحه!
اِرجعْ والْتمس نورًا،
واصطحبْ وليًّا،
وكن له وفيًّا،
تَنْجُ مهديًّا...

* * *

hiramagazine.com

أ.د. عرفان يلماز*

ملك المحيطات.. البطرس

مرحبًا أيها الإنسان... إذا سمحتَ أريد أن أتحدث إليك قليلاً، وأقدِّم معلومات عن نفسي كطائر من الطيور الكبيرة حجمًا... أنا البطرس... أقضي معظم حياتي ما بين طيران وسباحة... أقتات على السمك وغيرها من الحيوانات البحرية... ولأني أقوم بالاصطياد في البحار ثم أعود فأطير في الهواء، زوّدني ربي بمنقار طويل يتمتع بفتحتين على شكل أنبوبين طويلين.

لا نخرج نحن طيور البطرس إلى البرّ إلا في أوقات الإنجاب والتكاثر، إذ أمضي ٧٠٪ من حياتي في السباحة والطيران... لذلك مَيَّزني ربي عن سائر الطيور البرّية والثدييات بآلية عجيبة تلبّي حاجتي إلى الماء. إن جميع الحيوانات البرية -كما تعلمون- تشرب المياه الحُلْوة. وكذلك بنو جلدتكم يشربون المياه الحلوة، علمًا بأن الذين يلجؤون إلى شرب مياه البحر المالحة باستمرار، يموتون بعد فترة نتيجة ذلك؛ لأن كمية الملح في دمائكم وفي سوائل أجسامكم أنتم البشر، تُضبط عن طريق الكُلى بشكل دقيق، أيْ وإنْ تناولتم الطعام مالحًا أو غير مالحٍ، فإن كمية الملح تُنظَّم من قِبَل أقسام في الكُلية إما بامتصاص الكمية المطلوبة لتوازن الجسم أو بإمساكها ثم طرحها إلى الخارج. إن الملح في الجسم مهم للغاية، علمًا بأن توازن المحلول الكهربائي داخل الخلية وخارجها والذي يلعب دورًا هامًّا في حركة الأعصاب والعضلات، يتحقق باستخدام أيونات الصوديوم والكلور الكائنة في الملح الذي تناولتموه. لذا فإن اختلَّ التوازن في كمية الأملاح بشكل مفرط زيادةً أو نقصانًا، وإنْ لم تتمكن أجهزة طرح الفضلات من تحقيق التوازن المطلوب، يفقد الجسم توازنه الداخلي، ويؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى موت الكائن الحي.

أجهزة معالجة المياه المالحة

إن صاحب الرحمة الأبدية الذي زوَّد كل مخلوقٍ بجهازِ طرحٍ للفضلات وفقًا للمحيط الذي يعيش فيه، وضَع في

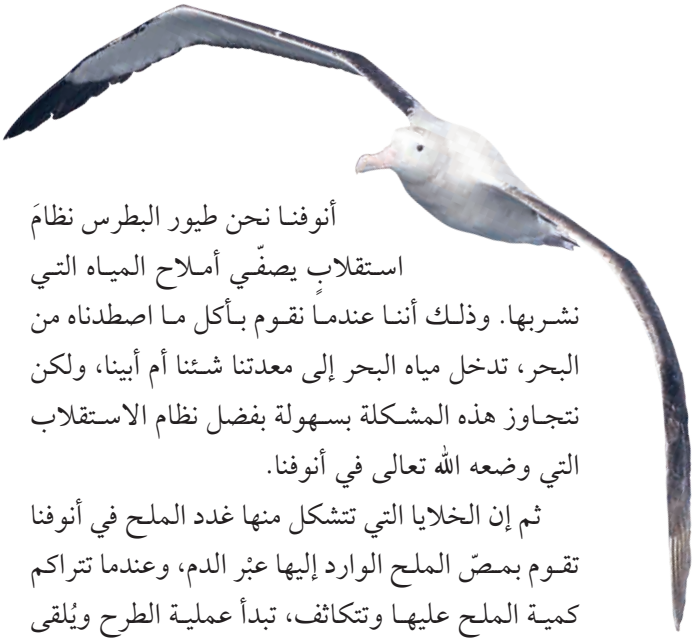

أنوفنا نحن طيور البطرس نظامَ استقلابٍ يصفّي أملاح المياه التي نشربها. وذلك أننا عندما نقوم بأكل ما اصطدناه من البحر، تدخل مياه البحر إلى معدتنا شئنا أم أبينا، ولكن نتجاوز هذه المشكلة بسهولة بفضل نظام الاستقلاب التي وضعه الله تعالى في أنوفنا.

ثم إن الخلايا التي تتشكل منها غدد الملح في أنوفنا تقوم بمصّ الملح الوارد إليها عبْر الدم، وعندما تتراكم كمية الملح عليها وتتكاثف، تبدأ عملية الطرح ويُلقى الملح من فتحات أنوفنا إلى الخارج. إنها عملية تستحق الدراسة أليس كذلك؟ فكثيرًا ما سمعتُ من علمائكم وهم يتحدثون عن أزمة مياه الشرب في المستقبل، وبالتالي علمتُ وجودَ دولٍ أنفقتْ المبالغ الضخمة لتصفية مياه البحر واستعمالها في الشرب... لذلك أدعوكم إلى التأمل جيدًا لتكتشفوا سرَّ نظام التصفية الموضوع في أنفي، ولتقيموا المصانع التي تنتج لكم المياه الصالحة للشرب وبتكلفة أقلّ بكثير مما تنفقونها.

حياة تقوم على الحركة

نَعْبُر المحيطات على شكل مجموعات كبيرة لانتقاء الجزر التي نضع فيها بيضاتنا. والطيران الجماعي هذا يمنحنا فائدة كبيرة. فمعظم أنواعنا تعيش بين خطَّي عرض ٤٥٠-٧٠٠ من ناحية الجنوب للكرة الأرضية التي تكثر فيها رياح المحيطات. وفضلاً عن أنواعنا التي تعيش في المياه الدافئة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، تعيش ثلاثة أنواع منا في شمال المحيط الهادئ أيضًا. أما طائر البطرس المتموج (Phoebastria irrorata) الذي يعيش في جزر غالاباغوس (Galapagos) يبني عشّه في منطقة الإكوادور في أمريكا الجنوبية ليضع فيه بيضاته.

ولا يوجد أي نوع من البطارس تبني أعشاشها في شمال الأطلنطي. أما أنا -البطرس الجوال- وصديقي البطرس الملك، فإننا نبني أعشاشنا في الجزر القريبة من دائرة القطب الجنوبي وجنوب المحيط الأطلنطي. أقوم بالتجول في جنوب المحيط بالقرب من خط عرض ٣٠٠ درجة خارج فترة التكاثر. أما الحكمة في متابعتي التيارات الكبيرة للمحيطات، هي كثرة الأمطار التي ينزّلها الرزّاق تعالى على أمريكا الجنوبية، وأستراليا، ونيوزيلاندة.

أبطال التحليق

لا يأخذ بكم الظن أن أبداننا الضخمة تعيق علينا التحليق في السماء وتُجبرنا على استهلاك طاقة كبيرة... فقد خلق لنا ربّنا عظامًا مُجوَّفة من الداخل، وزوّد تجاويف أجسامنا بأكياس الهواء كما عند سائر الطيور، ولكن ميزتنا هي العضلات التي تمكننا من بسط أجنحتنا وإبقائها مبسوطة أثناء الطيران، والتي تساعدنا على التحليق في السَّماء ساعات طويلة بلا تعب، إذ نكون قد استثمرنا تيار الهواء في أجواء المحيط، وركبنا الهواء ساعات طويلة. إن الطرف الأمامي من جناحَيَّ أطول مما عند فصائل الطيور الأخرى؛ فبينما يتألف جناح الطيور الأخرى من ١٠ إلى ١٢ ريشة، يتراوح عدد هذه الريشات لدينا من نوع إلى آخر ما بين ٢٥ إلى ٣٤ ريشة. وبفضل أجنحتنا الطويلة والضيقة هذه، نتمكّن من التحليق في الهواء وإنْ كان التيار فيه خفيفًا. وأما في الأجواء الساكنة التي لا يتنسّم فيها الهواء فأفضّل السباحة على سطح المياه، كي لا أعاني من حمل

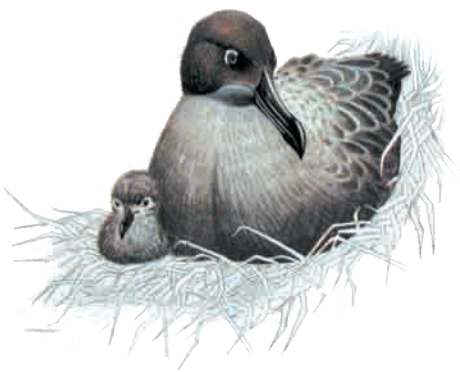

hiramagazine.com

جسمي الثقيل أثناء الطيران كثيرًا.

ترتيبنا في شجرة الطيور

نحن من طيور العواصف (Procellariiformes)، ننتمي إلى الأنواع الأربعة التي تكوّن فصيلة "Diomedeidae"، المتوزعة إلى ٢١ نوعًا. سِتُّ أنواع من فصيلة "Dio-medeidae" تشكّل كبرى أنواعنا. فأنا البطرس الجوال، يبلغ مسافة جناحَيَّ المبسوطين ٣٤٠ سم. وقد تبلغ هذه المسافة عند ذكورنا المُسِنّين ٣٦٣ سم. وتِسْعٌ من أنواعنا صغيرة الحجم تنتمي إلى جنس "Thalassarche"، كما ينتمي أربع أنواع لنا إلى الـ"Phoebastria"، وتعيش في المحيط الهادئ الاستوائي أو الشمالي.

أما المسافة بين الجناحين المبسوطين عند البطرس أسود الحاجبين فتبلغ ٢٣٠ سم، وتبلغ عند البطرس ذي الساق السوداء مِتْرين، وعند البطرس المَلِك ٣١٥ سم. هذا وقد يتميز البطرس السُّخامي بذيله القصير، وجناحَيه اللذين لا يتجاوزا ٢١٥ سم، كما أنه لا يعدّ من فصيلة الـ"Diomedea".

عائلة نموذجية

نقوم بطقطقة مناقيرنا من أجل التعرّف على الإناث التي سنختارها رفيقة لنا في الحياة. تقوم الأنثى التي تُعِدُّ نفسها للأمومة بإقامة عشها على شكل طاسةٍ تفرشها بالطين والطحالب والأعشاب.

ذكور البطرس أوفياء لأزواجهم. فالافتراق لا يحدث إلا في حالة عدم الإنجاب، وإن ثمن الافتراق باهظ للغاية، إذ تحتاج الأنثى بعده إلى عام أو عامين للزواج مرة أخرى.

حين تبيض الأنثى بيضة واحدة نتناوب نحن الإثنين

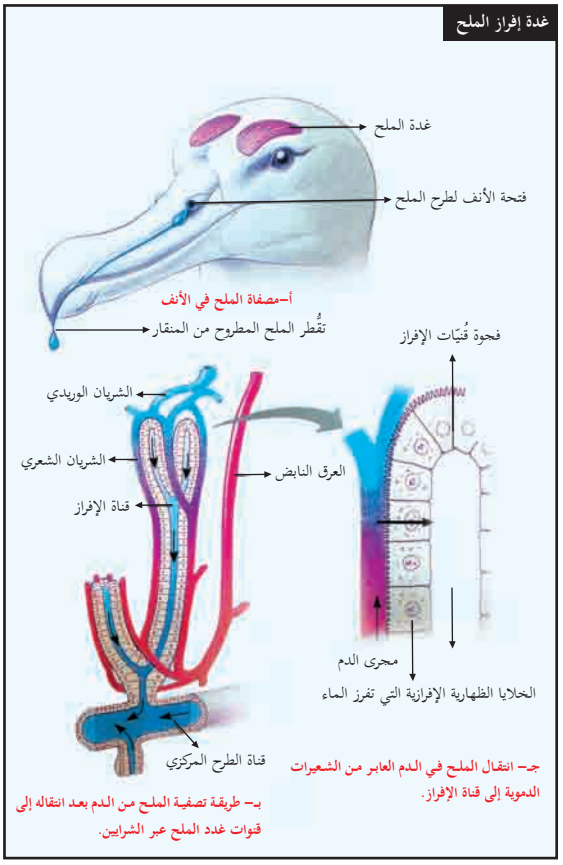

على حراستها واحتضانها، إن نمو الفراخ عند أنواعنا الضخمة يحتاج إلى فترةً أطول من فراخ أنواعنا الأخرى؛ إذ تبلغ فترة احتضان البيضة عند أنواعنا الصغيرة ٦٥ يومًا، بينما تصل عند الضخام ٨٥ يومًا. ويتراوح وزن البيضة المُرقَّطة بالنقاط الحمراء ما بين ٢٠٠–٥١٠ جرامًا، وذلك يساوي نسبة ٥–١٠٪ من وزن الأم.

العناية بالفراخ

يعتني الزوجان بصغيرهما أثناء احتضانه ٣٥٦ يومًا، ثم سنة واحدة أخرى حتى ينتهي من تبديل رشيه. وهذا يعني أننا نقضي عامين كاملين برعاية صغيرنا حتى يغدو

طيرًا صحيح الجسم.

نقوم بتغذية الفرخ الذي يفقس من البيضة جيدًا في الأيام العشرين الأولى، ثم يتناوب الذكر والأنثى في زيارة صغيرهما وحمل الطعام له بانتظام. تتمكن الفراخ التي تنمو ذيولها وأرياشها في مدةٍ تمتد من ثلاثة شهورٍ إلى عشرة شهور، من مغادرة العش لفترات قصيرة. فبينما يغادر فرخي العش بعد ٢٧٨ يومًا، يتمكن فرخ البطرس ذو المنقار الأصفر (Thalassarche Chlororhyn-chus) الذي يصغرني حجمًا والذي يعيش في المحيط الأطلنطي، من مغادرة العش بعد ١٢٠ يومًا. نمضي فترة الشباب التي تمتد من خمسة أعوامٍ إلى عشرة أعوامٍ في تعلّم السباحة وصيد الأسماك.

إننا نقوم بتصرفاتنا كلها بتقدير إلهي، مُبرمجين وراثيًّا لنحافظ على حياتنا ويستمر وجودنا على مسرح الحياة. وعلى الرغم من بعض العثرات، فإننا نقوم بكل ما يحتاجه جنسنا من أنشطة وأعمال بإذنه سبحانه وحده. تبتعد فراخ البطرس ذات السيقان السوداء عن العش نحو ٢٥ أو ٣٠ مترًا لتسبح في حرية تامة، ثم تعود إلى أعشاشها عند عودة آبائها أو أمهاتها حاملَين لها الطعام، كما لا يبتعد المراهقون من صغارنا كثيرًا عن أعشاشهم.

تظهر أولى علامات البلوغ عندما يبلغ المراهقون الثالثة أو الرابعة من العمر، ولا يتمكنون من بناء أعشاشهم حتى يبلغوا السادسة أو السابعة. وربما يمتد ذلك عند بعض أنواعنا إلى الخامسة عشرة من أعمارهم ولا يستطيعون بناء أعشاشهم قبل هذه المدة.

السعي في سبيل الرزق

نتغذى على ما يطفو على الماء... كما أن حيوانات البحار الجريحة أو الميتة أو أسماك الحبار والقُشريّات هي الطعام المفضل لنا. وأصبح اتباع السُّفُن في السنوات الخمسين الآخيرة مُغريًا لنا، لأن بقايا الأطعمة التي تلقى منها تكون مصدرًا جيدًا لغذائنا. بالإضافة إلى ذلك تقوم بعض أنواعنا بالبحث عن غذائها في أعماق المياه. فالبطرس ذو الرأس الرمادي -على سبيل المثال- يغطس حتى ستة أمتار ليصل إلى فريسته... والبطرس السخامي ذو المعطف يستطيع أن يصطاد في عمقٍ يصل إلى ١٢ مترًا. ولكن معظمنا يبقى على الغذاء الذي يطفو على سطح الماء. زد على ذلك فإننا نملك قدرة على الصيد في ظلام الليل، ويساعدنا في ذلك بريقُ كثيرٍ من الكائنات البحرية كأُمّ الحِبْر على سطح البحر. نحن طيور البطرس الجوالة نأتي في المرتبة الأولى بين طيور المُعَمّرَة؛ إذ نعيش ٣٠ عامًا، كما يعيش بطرس "Diome-dea epomophora" ٦٢ عامًا.

ما نتوقعه لمستقبلنا

إن سألتم عن عدونا الأكبر، فهو الإنسان مع الأسف في ظل العديد من الشركات التي تتعقبنا في سبيل الحصول على ريشنا، ثم بيعها بأثمان باهظةٍ للمترفين من الأغنياء ليحشوا بها وسائدهم أو فرشهم. وبسبب ذلك أوشك البطرس ذو الذيل القصير على الانقراض، وقد قُتل مئات الآلاف من إخواني خلال الأربعينيات من القرن العشرين، مع أن الله سبحانه قد يَسَّر لكم القطن والصوف. وبسبب هذا الترف، بتنا اليوم نحن طيور البطرس مهدَّدين بالانقراض والغياب عن مسرح الحياة.

كما أن تلوث البحر بالنفايا النفطية، وتسرب البترول نتيجة الحوادث التي تتعرض لها ناقلات النفط والمنشآت النفطية البحرية، أدى كل ذلك إلى فساد غذائنا بشكل مخيف وبالتالي إلى موت الكثير منا... وقد علمتُ مؤخرًا من علمائكم المتخصصين بأبحاث البيئة، أن عدد الموتى من إخواني الذين علقوا بشباك صيد السمك أو قُتلوا برصاص بنادق الصيادين، بلغ ٤٤ ألف طير.

إن عددنا اليوم يُقدَّر بمليوني زوج، ٦٠٠ ألف زوج من هذا العدد، من البطارس ذات الأرجل السوداء... كما تتوزع الأخرى إلى ١٤ نوعًا بمعدل ٢٠ ألف زوجٍ لكل نوعٍ، تسعى جميعها إلى هجرة دائمة من محيط إلى محيط لتبقى على قيد الحياة.

ولكن كلُّنا أملٌ في تكاثر عدد الذين يؤمنون بأن هذه الطبيعة أثر من آثار الصانع الخبير ذي القدرة المطلقة؛ ستستيقظ الإنسانية من سباتها العميق وتنهض من جديد... وعندها تنجو الطبيعة من التخريب وينجو نسلنا من الانقراض إن شاء الله. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

hiramagazine.com

أ.د. لطف الله خوجه*

البناء والتقدم

بين تعظيم الدنيا وتعظيم الآخرة

في بيان منزلة الدنيا من الآخرة قال قائل: لما حقّر المسلمون أمر الدنيا أهملوها فتأخروا، والغرب لما عظّمها عمل لأجلها فتقدم، لذا ينبغي على المسلمين أن يَعدِلوا عن النظرة السلبية للدنيا، التي تؤدي إلى إهمالها وإهمال القيام بعمارتها، وأن يبحثوا في أسباب التقدم، لأن الله تعالى خلقنا لنستعمرها ونمشي في مناكبها. لكن هذا قول مغلوط، لأن المشكلة ليست في عمارة الأرض، بل المشكلة في الإقبال على الدنيا بدرجة العبادة؛ فالذين فقدوا الإيمان عظموا الدنيا لأنها رأس مالهم، والمؤمنون أخروها لتعظيمهم الآخرة، وهذان التعظيمان لا يجتمعان.

ثم إن هذا الرأي لم يصدق في تصوير هذه المشكلة، فهو مفتقر إلى الدقة، ذلك لأنه لا وجود اليوم لمسلمين

يهوّنون من شأن الدنيا، حتى قرن مضى إلى قرنين، ليس ظاهرًا في المسلمين تعظيم الآخرة كما عظمها السلف إلا ما كان من أحاديث دون أن يكون لها أثر في الواقع. فمنذ مضي قرن الصحابة ﷺ والمسلمون في انتقال مستمر من تعظيم الآخرة إلى تعظيم الدنيا... في إقبال على الدنيا وإدبار عن الآخرة... حتى تكامل اليوم أو كاد، وهذا يَعرِفه مَن درَس التاريخ ووقف على ما طرأ على المسلمين بعد الفتوحات وشيوع الأموال.

فالحقيقة أن المسلمين اليوم وغيرهم -في الإقبال على الدنيا- سواء؛ محبة وتعظيمًا واهتمامًا بالغًا... وإذا نظرنا إلى المترفين واللاهثين وراء الدنيا اليوم فسنرى الفرق بينهما، وهو أن المسلمين في حالة تلقٍّ وقبول لكل ما يغرقهم في الدنيا ويجعل منهم أمة تابعة مقلدة لغيرها، وأن الغرب في حالة تصدير وتأثير في العالم وفي المسلمين.. أيْ الغرب معظِّم للدنيا مؤثر في غيره، والمسلمون معظِّمون للدنيا متأثرون فيها بغيرهم.

أما ذلك القول المغالط، فإنه يصور المشكلة وكأن المسلمين رهبان أعرضوا عن زخرف الدنيا بالكلية ولم يقوموا بأي عمل دنيوي! ولكن ما يبدو لنا أن صاحب هذا الرأي يريد أن يرجع باللائمة على الشريعة بأنها كرست تهوين الدنيا وإهمالها، ولكن عندما فشل في ذلك رجع وألقى اللائمة على المسلمين، أي عندما استعصى عليه فهم الواقع قام بالنظر في طريقة الغرب في التقدم فرجع إلى المسلمين ليحملهم عليها.

أيًّا كان، فهو رأي خاطئ وتشخيص قاصر، وسبب الداء معروف غير مجهول، وما كان الله تعالى ليبهم ويعمي عن وسيلة علو الإسلام والنهوض بالأمة فلا يدركه إلا آحاد الناس.

كلا.. فهذه قضية كبرى. وعادة الشريعة، بيان وإيضاحُ القضايا الكبرى التي تهم الأمة. فأمر تعظيم الآخرة والتهوين من الدنيا في النصوص الشرعية أوضح من الشمس. أما سبب تأخر المسلمين، فلا يعرف إلا بعد معرفة سبب تقدمهم.

ففي المئة الأولى تمت الفتوحات، وبسط الإسلام سلطانه شرقًا إلى الصين، وغربًا إلى المحيط الأطلسي، وشمالاً إلى أوربا، وجنوبًا إلى إفريقيا. في قرن واحد هزم الإسلام إمبراطوريات كبرى ذات حضارات مؤثرة، وذات قوة عسكرية واقتصادية وثقافة وكثافة سكانية على رأسها فارس والروم. فبأي شيء تقدّموا عليهم؟ هل كان ذلك بحضارة مثيلة؟

كلا، لم يكن شيء من ذلك أبدًا -والتاريخ لا يمكن تزويره- بل لم يكن لديهم سوى إيمان عميق بالله واليوم الآخر أعطاهم اليقين والثقة والثبات والهدف الصحيح، وعمل صالح كان وقودًا لإيمانهم، وزهد في الدنيا أورثهم قوة القلب والتوكل على الله تعالى، وقوة أعدّوها قدْر المستطاع، لا مضاهية ولا مماثلة.

هذه هي أدوات العلو والنصر والتمكين التي كانت، وبها انتصر المسلمون في معارك غير متكافئة مع قريش ثم العرب ثم فارس والروم، كانوا فيها الأقل في العُدّة والعتاد والحضارة.

وقد بان لهم أسباب الهزيمة في معركة حنين، فبعدما كانوا هم الأقل عددًا وعُدّة في غزوات بَدْر وأُحُد والخندق ومؤتة وتبوك، هم اليوم في حنين الأكثر، فكان ما لم يحتسبوا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾(التوبة:٢٥).

مع الكثرة تنتفي الحاجة ويحل الغرور بالاعتماد على النفس وترك التوكل فتكون الهزيمة. والمؤمنون إنما ينتصرون بالله لا بأنفسهم، وبقوة الله لا بقوتهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٧).

وقد بين الله تعالى جليًّا في كتابه شروط التمكين في الأرض فقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(النور:٥٥)؛ فذكر التوحيد وترْك الشرك، والإيمان بالله، والعمل الصالح، يضاف إليها ما ذُكر في النصوص الأخرى:

hiramagazine.com

إعداد القوة، والزهد مع التوكل.

ولم يذكر الأسباب المادية كعمارة الأرض، لأن حب البناء مركوز في الفطر، وإنما يذكر في العادة بما قد يهمل أو ينسى، لا ما كان حاضرًا في الذهن والواقع، فالناس في سعي مستمر لا يكفون، هذا خلقهم وديدنهم. فظهرت بهذا أسباب الهزيمة، وليس منها الضعف في العدد أو العتاد أو الاقتصاد أو الحضارة أو الصناعة، بل ضعف الإيمان وتعظيم الدنيا.

لكن هل المعنى أن لا نتخذ الأسباب للتقدم الاقتصادي والصناعي؟ اتخاذ الأسباب في كل شيء مطلوب، وكل ما يحقق للأمة تقدّمًا فهو مطلوب. وغير مطلوب محاكاة الذين فقدوا الإيمان لنكون صورة لهم في كافة أنواع التقدم... فبما أن ديننا غير دينهم وكذا شريعتنا، فيجب أن تختلف أهدافنا ووسائلنا وحدودنا وضوابطنا. وأبرز خلاف بيننا وبينهم في التقدم، هو أنّ تقدّمنا ينبني على تعظيم الآخرة، وتقدمهم ينبني على تعظيم الدنيا. فيتقدمون لأجل الدنيا، ونحن نتقدم لأجل الآخرة، وفارق الهدفين كبير.

في التقدّم المبني على تعظيم الدنيا، مغالاة وإفراط كبير في اتخاذ المتاع المادي بما يوصل إلى الترف والفجور والعدوان وسلب الناس أقواتهم وكرامتهم... وهو يصل إلى عبادة الدنيا.

وفي التقدم المبني على تعظيم الآخرة، حدود لا تُتَخطى، تقوم لخدمة الإنسان أولاً؛ بكفايته وأمنه قبل لهوه وملاعبه، يكفيه مشكلة القوت والسكن قبل المضاهاة ببناء ناطحات السحاب، ويصون كرامته عن المسألة بدل تشريده وحرمانه، ويقف بالرفاهية والبذخ عند حد، ولا يقبل بما هو محرم وضار، ولا بما يشير إلى نسيان الآخرة أو يفضي إلى ذلك.

ومن أراد تعظيم الآخرة من خلال تعظيم الدنيا، فقد أتى بمعادلة محالة. فإن الله تعالى لم يجعل تعظيم الدنيا طريقًا إلى تعظيم الآخرة بل بازدراء الدنيا. فمن رام ذلك فإما أن يهوّن من مقام الآخرة فيجعل الآخرة مطيته إلى الدنيا، أو يكتشف بعد عنت أنه محال. لكن عدم تعظيم الدنيا لا يلزم عنه إهمالها، كلا، بل المطلوب عدم المبالغة في العناية بها، وأن لا تكون هدفًا بذاتها، وأن لا تكون في القلوب.

وإذا أردنا أن ننتصر على الكافرين فبالدعوة إلى الالتزام بمبادئ الإسلام، ندعوهم بثقتنا بالإسلام، ويقيننا بالإيمان، والعزة والقوة في الحق، والجهر به والصدع، ندعوهم بالمبادئ الإيمانية والأخلاقية قبل التفوق المادي فيما لو تفوقنا.

فالتفوق المادي لا يجدي كثيرًا في دعوتهم، لأن عندهم منه وزيادة، ومهما صنعنا "ماديًّا" فلن نبلغ تفوقهم، لأننا مقيَّدون وهم منفلتون، والمنفلت يأتي بما لا يأتي به المقيَّد.

فكيف نطمع أن نهديهم بشيء هم فيه أحسن منا، ولا يلزم أن نكون أحسن منهم فيه في الصناعة والاقتصاد، يكفي أن نتقدم بما يسدّ حاجتنا فلا يتركنا محتاجين عالة معوزين، يكفينا من التقدم ما يردع عنا ويصون ديارنا وأعراضنا وأموالنا. هذا يكفينا... فلدينا مهمة عظمى هي بناء الآخرة بإصلاح أنفسنا، واستصلاح غيرنا، ودعوة العالمين إلى عبادة رب العالمين وحده. فلو استفرغنا جهدنا في بناء الدنيا فما يبقى للآخرة؟!

والصحابة ﷺ دعوا فارس والروم بما ليس عندهم؛ بالإيمان بالله واليوم الآخر، ولا سبيل لنا إلا أن ندعوهم بما هم فقراء فيه، لا بما هم أغنياء فيه. هم فارغون، علينا أن نملأ أرواحهم بالإيمان. متخبطون فكريًّا، علينا أن نهديهم بإذن الله.

ميدان الروح والفكر هم فيهما ضائعون محتارون، ونحن فيهما نملك مصادر الهداية. وميدان المادة هم فيه أسياد وكهنة، ونحن مهما صنعنا لن نكون كمثلهم. فالعقل والمنطق يقول: نعطيهم ما عندنا مما اختصصنا به. ومن عدم البصيرة أن نترك هذه الغنيمة والطريق المفتوح، لنجتهد في فتح طرق مغلقة أمامنا فيها عوائق جمة تعوقنا أن نكون "مثلهم" في التقدم المادي لما سبق أنهم منفلتون، والمنفلت يفعل ما لا يفعله المقيَّد. ■

(*) جامعة أم القرى، مكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

سلوك المحتسبين

الأصل أن نُجمِّع طاقتنا ونبذلها في مشاريع صالحة نافعة. وحذار من التشتت والتبعثر. فالإنسان محدود الطاقة والمقدرة، محدود التفكير والفهم، محدود المنطق والاستيعاب... فإذا ما تناثرت همّته هنا وهناك، يصاب بالإرهاق ويتعثّر في القيام بمهامه الضرورية، وربما يفشل في القيام بها تمامًا. ومن ثم اعملوا وسدِّدوا.. أُعجِب الناس بصنيعكم أم لا. رَحَّبوا بكم أم عَبَسوا في وجوهكم... ينبغي ألاّ نلتفت إلى ذلك. لِنَكُن ماء في الصحارى القاحلة... ولنتدفق سلسبيلاً كالأنهار... وإنْ عدّها بعضهم سُمًّا وأعرض عن شربها، لا نيأس.

لِنَكُن ترابًا تحت الأقدام دائمًا؛ كنْ ترابًا، كنْ ترابًا حتى تُنبت الورودَ... لِنَكُن ترابًا، ترابًا خصبًا معطاء... بعضهم قد يُعِدّ ذلك التراب قاحلاً فيُحجم عن نثر البذور، لا ضير... لننثُر كل ما نملك في تلك الأرض الطيبة، ولا يعنينا أَزَعاها من بعدنا أحد أم لا. لِنَكُن غمامًا يشمل الناس بظلاله، ثم يتقاطر غيثًا منهمرًا على رؤوسهم، ولا علينا أن ننشغل، أَقاموا سدودًا للاستفادة من ذلك الغيث أم لم يقيموا؟ لِنصدح بأقوى الألفاظ وأعذب الألحان، ولو سدّوا آذانهم أو أغمضوا عيونهم إعراضًا، لا نبالي... لِنَسْع دون ملل إلى إسماعهم أعذب الألحان بأعذب العبارات وأرق الألفاظ.

لِنَرْفع القلمَ ونكتبْ به عبارات مصبوغةً بالإخلاص، ملونة بالإخلاص، مزخرفة بالإخلاص، مطبوعة بالإخلاص... ولْتَكُن مرضاة الله روح تلك العبارات... ولا يعنينا أَأَثْنى بعضهم عليها أم لا. فإنْ لم يُقبل عليها اليوم أحدٌ فسوف يحتضنها أجيال الغد المنصفون. لِنَكُن نحن ترابًا تطؤه الأقدام... لِنَبْق نُعفِّر وجوهنا بالتراب... ولا نبالي، أَعَرَفوا قَدْرَنا أم لم يعرفوا. لِنَنْثر البذور، ولا نبالي حتى لو زعموا أنهم هُمْ الزارعون... لِنُنْشئ سدودًا تَسقي أراضيهم، ولا نبالي ولو قالوا عن أنفسهم "نحن المنشئون". فالقول لا يَعنينا، لأنّ المهم هو القيام بما ينبغي إكرامًا للإنسانية.

قد تبدو هذه المعاني -لأني تفوَّهتُ بها- متعثّرة شاحبة متهافتة، مِثْلي تمامًا، لكنها في أصلها نداء الأنبياء وأنفاسهم في كل زمان: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾... لا نريد منكم جزاء... فَعَلْنا، أَنْجَزْنا، أَقَمْنا، قُلْنا، مَهَّدْنا، كنا ترابًا، بلَّغْنا رسالة، نَشَرنا الحق، خَدَمنا الحقيقة... لا نريد منكم مقابل ذلك ولو مثقال ذرة.

الأستاذ بديع الزمان يذكر قصة حبيب النجار في سورة يس، والتي قيل إنها وقعت في أنطاكيا، والروايات تقول إنهم رسُلُ عيسى عليه السلام... يأتي رسولان ثم يلحق بهما ثالث. يقول حبيب النجار: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. هؤلاء وجدوا الطريق، إنهم على هدى، وهم لا يطلبون منكم أجرًا.. إن كان لابد من الاتباع فاتبعوا هؤلاء... اتبعوا من لا ينتظر منكم شيئًا، لا يطمع في شيء عندكم. ولا تتبعوا من يحدِّق فيكم طمعًا في ثناء أو تصفيق أو تملّق مقابل معروف أسداه إليكم... أو يسعى إلى ملء أكياسه وخزائنه بأموالكم لقاء إحساناته

إليكم... ولكن اتبعوا هؤلاء... اتبعوا الأنبياء العظام... اتبعوا ورثتَهم المخلَصين كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين آلاف المرات... اتبِعوا من سار على دربهم كالجيلاني، والشاذلي، ومصطفى الصديق البكري، ومحمد بهاء الدين النقشبندي، والإمام الرباني، وخالد البغدادي، والشاه ولي الله الدهلوي، وبديع الزمان النورسي، ومَن تبعهم بإحسان من نجوم الهدى... هؤلاء فارقوا الدنيا كما جاؤوا إليها؛ ليس معهم سوى الكفن. ولم يورِّثوا من متاع الدنيا ولو مثقال ذرة. هؤلاء هم من يُقتدى بهم... هؤلاء عدّوا الدنيا محطة عابرة... قال سيد المرسلين: "ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"؛ لا علاقة لي بهذه الدنيا، إن صلتي بها صلة مسافر جلس تحت شجرة ريثما يلتقط بعض أنفاسه ثم غادرها.

اتبعوا من كان على هذه الشاكلة، اتبعوا من يعيش عيشة كهذه... من اقتدى بهم لا يخسر أبدًا... لِنُكثِر من العمل الطيب، ولِنَنْشر الخير والصلاح... ثم لا ننتظر مقابل ما بذلناه. ذَكَرْنا في أحد الدروس إذا صنعتَ معروفًا أو تصدّقتَ، أو زكّيتَ، أو أحسنتَ إلى أحد، أو وهبتَ أحدًا منزلاً، أو مهّدتَ طريقًا... فلا تُبطِل هذا بالمنّ قولاً أو فعلاً أو إشارة أو حتى بتعبيرات وجهك وأنت تنظر إليه وكأنك تقول: ألم أُمَهِّد لك طريقًا؟ ألم أؤسس لك بيتًا؟.. إن فعلتَ، فقد صيّرت عملك رديئًا بلا قيمة.

قيمة العمل مرتبطة بخلوه من المنّ. يقول تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾؛ لا تبطلوا ما تقدّمونه رمزًا لصدقكم، وبوضوح أكثر، لا تبطلوا ما يعبّر عن شهامتكم ويرمز إلى صِدْقكم جهرًا أو تلميحًا على سبيل المنّة والإحراج. وكذلك التبليغ لا تعرّضوه لمصيبة المنّة، ولا انطلاقكم بهذه الرسالة إلى أنحاء العالم، ولا انفتاحكم إلى أكثر من ١٥٠ دولة، أو تأسيسكم لأكثر من ألف مدرسة... بل كلما انهمرتْ عليكم النِعَم الربانية كالغيث، وبلّلتكم من أعلى رؤوسكم إلى أخمص أقدامكم انحنوا كالغصن تواضعًا. هذا هو مقتضى الشعور بِنِعَم الله ومقتضى إدراك مواهبه الواسعة؛ أيْ الانحناء والسجود تواضعًا... هذا الانحناء اعترافٌ بأن هذه النِعَم ليست مِنَّا، إنما هي منه سبحانه. هذه الروح، روح النذر، هي المحرّك الأكبر لأولئك الذين نذروا أنفسهم لخدمة القرآن. ويجب على هؤلاء الناذرين ألاّ يتخلوا عنها أبدًا. شخصيًّا لم أستطع أن أكون كذلك، ولا أملك الهمَّة لذلك، ولكنكم بإذن الله وعنايته ولطفه ورعايته ستحققون ذلك.

اللهم أَفِضْ علينا من عَوارف المعارف... أفض علينا نعمك المشرقة الوجوه ومواهبك النضرة الملامح غيثًا مدرارًا يغشانا من رؤوسنا إلى أقدامنا. صُبَّه اللهم علينا صبًّا، فنحن فقراء لا يشبعون، وإزاء كل لطف من لدنك "هل من مزيد" يهتفون. ■

(*) الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. هذا النص مفرَّغ ومترجم من دروس الأستاذ الشفوية.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

الإسلام والمسألة الأخلاقية

تأملتُ في نفسي أولاً ما الذي ينقصها، فوجدته الخُلُق الحَسَن. تأملتُ فيمن حولي، فوجدتهم يُشْبهونني وقد يكونون أحسن مني. ولكنا جميعًا أفلسْنا في مستوى الخُلُق الحَسَن المطلوب في هذه الشريعة، والمطلوبِ من حامل هذا الدين. وتأملتُ في حال المسلمين جميعًا من أقصى الكرة الأرضية إلى أقصاها، فوجدت المسألة الخُلُقية مسألة تستحق عناية أكبر مما يعطى لها، ليس فقط في الجانب النظري أو في جانب الدراسة أو في جانب التحليل أو في جانب الحديث والخطابة، وإنما في الجانب العمَلي على وجه الخصوص، وهنا النقص الشديد الفظيع، المسؤول عن الكثير من الويلات التي نعاني منها أفرادًا وجماعات.

"الخُلُق"، من نفس المادة التي منها "الخَلْق"، إذ الفرق بينهما مجرد تغيير طفيف في الحركة، وهذا الأصل يُشعِر بأن ما يُطلَق عليه هذا، هو من جنس ما يُطلق عليه هذا. فالخُلُق إذن هو تلك الصفات والسجايا التي ترسخت في الإنسان إلى حدّ أنها صارت تشبه خِلْقَته... فهو اللباس المعنوي، وإن شئتم هو لباس النفس الإنسانية، والنفس من الداخل تلبَس لباسًا خاصًّا هو "الخُلُق".

اللباس الذي يَسْتُر به الخَلْق جسمه هو لباسٌ مادّي يَسْهل تغييره وإعادة ترتيبه وتنظيفه وتزيينه، ولكن اللباس المعنوي ليس من السهل تغييره، وليس من السهل إصلاحه، وليس من السهل إحداث الترتيب فيه بسرعة ليعود على الصورة التي نحبّ أن يكون عليها، بل لابد من مجاهدة ومكابدة ورياضة شاقة عسيرة تُسْهم فيها أمور كثيرة؛ مادية ومعنوية، داخلية وخارجية، ومن جملتها البلايا التي يُسْلِّطها الله على عباده ليطهّرهم بها ويزكّيهم.

الخُلُق لباسٌ معنوي

هذا اللباس المعنوي ليس من السهل إحداث تغيير فيه،

فلابد من مجاهدة ومجهود كبير -وهذا الأمر يغفل عنه- إذ حين يتم الانتقال إلى هذا الدين بسرعة، تَحدُث التغييرات الشكلية في لابس الدين، ولكن التغييرات المعنوية لا تسير بنفس السرعة، هذا إذا حرص عليها وواجهها وراضَ نفسه على التغييرات المطلوبة... أما إذا أهملها فسيظل فقط مخلوقًا مستورًا بزيٍّ يخالف ما هو مستور تحته، وهذا يعني ظاهرٌ يخالفُ الباطنَ، ويعني ظاهرٌ يصبح وسيلة للخداع من حيث لا يشعر الإنسان.

إن الإنسان يبتدئ من الحكم على الظاهر أولاً، وينطلق في التعرّف على أي شخص من ظاهره، لأن ذلك الظاهر له دلالة وله معنى، فهو بمثابة لفظ يدل على معنى؛ فإذا ساوى اللفظ المعنى (أي ساوى الظاهرُ الباطنَ) أو كان هذا اللفظ أقل من المعنى (أي الباطن أحسن من الظاهر) فذلك يشير إلى أن خلقه أكثر من اللفظ الذي هو الصورة الظاهرة. وها هنا يفرح الإنسان.

الدّيــن كله عبــارة عن خُلُق، أي إن طبيعته ليســت طبيعة نظرية، وليست معلوماتية، بل هي طبيعة عمليــة؛ هي طبيعــة اللباس الــذي يُلبس، لباس تلبسه النفس الإنســانية فتصير به خَلقًا آخر، وهذا هو المطلوب.

حراء

أما إذا كان العكس، أي الظاهر جميل والباطن خرِب فيا خسارتاه... لذلك كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه المشهور: "اللهم اجعل سِرّي أصلحَ من علانيتي، وعلانيتي صالحة".

الأساس الذي يتم عليه الحساب

اللباس المعنوي هو الأساس في الشخصية لا اللباس الخارجي، وهو الأساس الذي عليه يتم الحساب يوم القيامة، وهو الأساس في نظر الله ﷻ إلى العبد، وهو الأساس من الناحية العملية في التقويم الصحيح لكل إنسان، وينبغي أن نقوّم أنفسنا من هذا الجانب لا من الجانب الشكلي الخارجي. والشريعة اهتمت أول ما اهتمت بهذا الجانب، وعليه ركزت. ولتقريب المعنى يمكن أن نستعير ما يقال في مجال البناء؛ فهناك البناء الأساس أسوارًا وأسسًا وحديدًا، وهناك التحسينات والتزينات المسماة بـ"Finition" (لفظة أعجمية ولكنها طغت على اللفظة العربية). هذه المحسنات وهذه المزينات التي تعطي البناء شكله النهائي -تأتي في الأخير عادة- لها أهميتها، وهي أساسية في الأصل لا نستطيع أن نسمّيها كماليات زائدة لا معنى لها، بل هي من الشيء ومن ذاته ومن صميمه، وهي ضرورية للشيء، وهي التي تعطي للشيء شكله الحقيقي... ولكن ينبغي أن تكون في إبانها، وساترة لكيان آخر في غاية المتانة والصلابة. أما إذا حدث العكس، فالشكل الذي يُرى جميلاً والبناء المستور تحته في غاية الهشاشة، فهنا تكون الكارثة، إذ قد يسقط البناء كله في لحظة من اللحظات فتحدث كارثة إنسانية.

هذا اللباس المعنوي أنواع، فيه جانب يمكن أن نسميه خُلُقًا مع الله ﷻ، والثاني يمكن أن نسميه خُلُقًا مع النفس، وفيه جانب يمكن أن نسميه خُلُقًا مع الناس.

عناية الإسلام بالجانب الخُلُقي

الإسلام عنِي بهذا الجانب عناية كبيرة، ولا بأس أن نقف عند بعض الأحاديث وبعض الآيات الكريمة لننظر أين يضع الله ﷻ هذه المسألة. من الآيات الصريحة في هذا الموضوع، قول الله ﷻ مخاطبًا رسوله ﷺ في سياق اتهام الخصوم له بالجنون وبغير الجنون: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤). من جملة ما فسَّر به العلماء الخُلُق ها هنا بـ"الدين" وهو الخُلُق الذي أشارت إليه السيدة خديجة ﵂ في بدء الرسالة حين قالت للرسول ﷺ: "كلاَّ والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لَتصِل الرّحِم، وتُكْسِب المعدوم، وتقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق وتحمل الكَلّ"، أو كما قالت ﵂ جزء من حديث متفق عليه. "كلاَّ والله ما يخزيك الله أبدًا"؛ أي مثل صاحب هذا الخُلُق لا يمكن أن يعاقَب بنقيض ما هو عنده. يعني أن الخُلُق الحسَن يؤدي إلى الثواب الحسَن. هذا منطق الأشياء، وبهذا المنطق الفطري الطبيعي تكلمت السيدة خديجة ﵂. والله ﷻ أعدّ رسوله هذا الإعداد بهذا الخُلُق العظيم ليحمل هذه الرسالة العظيمة ليكون كفؤًا لها. فإذن الخُلُق الحسن نفسه، هو أول المؤهلات وأعظمها لحمل الأمانة.

الخُلُق الحَسَن تعبير عن الإيمان الكامل

كان رسول الله ﷺ يحثّ على حُسن الخُلُق، لأنه اللغة المعبرة بصدقٍ عن حُسن الإيمان وكماله، قال ﷺ: "أكْمَلُ المؤمنين إيمانًا، أحسنُهم خُلُقًا"، وقال ﷺ: "خِياركم خِيارُكُم لِنسائه". والتعبير عن الكمال والحُسن باسم التفضيل في هذا الكمال، يشعر بالثمرة الحسنة للإيمان التي يتم التعبير عنها في شكلِ أرفعِ الأخلاق وأسماها، لأن الإيمان الذي وقَر في القلب لا يمكن أن لا يعبّر عن نفسه، أي مستحيل أن لا يعبّر عن نفسه في صورة خُلُق حَسن، بل الحقيقة أن كل ما هو واقر في القلب، لابد أن يعبّر عن نفسه في الخُلُق إن حَسَنًا فحَسَن، وإن سيّئًا فسيّئ، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾(محمد:٣٠)، وقال الشاعر:

hiramagazine.com

ومهما تكُنْ عند امرئ من خَليقة
وإن خَالَها تَخْفى على الناس تُعْلم

إذن فكما أن الإيمان يؤدي إلى كمال الخُلُق، فحُسْن الخُلُق يؤدي أيضًا إلى كمال الإيمان. والإيمان ليس -كما يقال- "موجودًا في القلب بدون أثر يُرى في الخارج"، فالحقيقة هو شيء معبّر عنه في الخارج بعدَّة طرُق، من مثل قول الرسول ﷺ: "إذا رأيتم الرجلَ يَعْتاد المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان" (رواه الترميذي). هذا فعل وهذه ممارسة تدل على شيء؛ فالإيمان يعبّر عن نفسه، فإن لم يعبّر دلّ على ضعف، مثل ما في أحاديث الجهاد من مثل قوله ﷺ: "ما من نبي بعثه الله في أمةٍ قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ يأخذون بسُنّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُف من بعدهم خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خَرْدلٍ" (رواه مسلم)، وذلك هو أضعف الإيمان. هذا حال ضعيف جدًّا حين لا نجد تعبيرًا خارجيًّا صريحًا متجاوزًا الذات، وهو لابد له من تعبير في الذات، على الأقل في هذا المستوى الذي عبر عنه الحديث، لابد للإيمان من تعبير، وهذا التعبير يترجَم إلى خُلُق حسن. فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا... فحسن الخُلُق هو كمال الإيمان... فهذه الدرجة العلية التي وضع فيها رسول الله ﷺ الخُلُق، تطابق الحقيقة، وهي أن أعلى درجة في الإيمان هي درجة حُسن الخُلُق، وأن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا. ومثل ذلك في البِرّ، وقد سئل عنه رسول الله ﷺ: ما البِرّ؟ قال: "البِرُّ حُسْنُ الخُلُق"، والبِرّ كما ورد في كتاب الله ﷻ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(البقرة:١٧٧) إلى آخر الآيات التي تشمل جميع الجوانب الباطنية الخاصة والعامة، إلى أن يقول: ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾؛ هؤلاء هُم الأبرار، هم الذين صدقوا، وهم المتقون، وهم الذين اتصفوا بصفة البرّ، والبرُّ حُسْنُ الخُلُقُ، بل نجد أن رسول الله ﷺ

أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا... فحسن الخُلُق هو كمال الإيمان... فهذه الدرجة العلية التي وضع فيها رسول الله ﷺ الخُلُق، تطابق الحقيقة، وهي أن أعلى درجة في الإيمان هي درجة حُسن الخُلُق، وأن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا.

حراء

يقول في الحديث الصحيح: "إنما بُعِثْتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق"، أيْ جاء رسول الله ﷺ ليتمّم مكارم من الأخلاق سبقت وجاء بها أنبياء سابقون، وهو جاء ليتمّ هاته النعمة. ولأهمية الأخلاق نجد رسول الله ﷺ يركّز عليها في كل حالة؛ مثل حديث أبي أمامة ﷺ المشهور: "أنا زعيمٌ ببَيْتٍ في رَبَض الجنة لمن ترَكَ المِراءَ وإن كان مُحقًّا، وببَيْتٍ في وسط الجنة لمن ترَكَ الكذب وإن كان مازحًا، وببيْتٍ في أعلى الجنة لمن حسّن خُلُقه -أو لمن حَسُن خُلُقه-" (رواه الإمام أحمد)؛ فالمدار على حُسْن الخُلُق لأنه رأس الأمر. الدّين كله عبارة عن خُلُق، أي إن طبيعته ليست طبيعة نظرية، وليست معلوماتية، بل هي طبيعة عملية؛ هي طبيعة اللباس الذي يُلبس، لباس تلبسه النفس الإنسانية فتصير به خلقًا آخر. فالدين خُلق، أي ذو طبيعة عملية، طبيعةٍ يُتخلق بها فتصير كالخِلقة؛ كخلقة الشخص سجيةً راسخةً فيه وهذا هو المطلوب. ومحمد رسول الله ﷺ عبارة عن خُلُق أيضًا، قالت سيدتنا عائشة ﷺ وقد سئلت عن خُلُقه: "كان خُلقه القرآن"، والقرآن نفسه كان عبارة عن خُلُق تخلّق به رسول الله ﷺ. إذن الدين "خُلُق"، ومحمد ﷺ "خُلُق"، والقرآن "خُلُق". فالخُلُق في منزلة عليّة جدًّا وهو نوعان؛ حَسَن وسيّئ. أما الخُلُق الحَسَن فهو الذي ينبغي على المسلم أن يتخلق به، وهو الذي جاء به الإسلام ليتمّمه، وهو الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وكان مثلاً له، وكان لنا أسوة في هذا الخُلُق الحَسَن لا في سِواه، ولا يُوجَد سِوَاه لدى رسول الله ﷺ. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

hiramagazine.com

أ.د. بركات محمد مراد*

من مظاهر التسامح في الإسلام

تأسس مجتمع المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عمليًّا على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يُكرهوا أحدًا على الدخول في الإسلام... فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعدّ مبدأ من المبادئ الإسلامية التي أكدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦). فالعقيدة تتصل بعلاقة الإنسان بربه، وبالتالي فهي تفترض الاقتناع الكامل بها، والتسليم المطلق من الإنسان لخالقه، وهو أمر لا يتم بالإكراه.

ولم يحفظ التاريخ أن أمة سوت رعاياها المخالفين لها في دينها برعاياها الأصليين في شأن قوانين العدالة ونوال حظوظ الحياة بقاعدة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" مع تخويلهم البقاء على رسومهم وعاداتهم، مثل أمة المسلمين، فحقيق هذا الذي نسميه التسامح بأن نسميه "العظمة الإسلامية".

ولهذا، عندما حررت الجيوش الإسلامية تلك الشعوب المضطهدة تحت نير المستعمرين من الروم والفرس، حررت كذلك ضمائرهم من الاضطهاد

الديني الذي عانوا منه عدة قرون، فتركوا -لأول مرة في تاريخهم- وما يدينون وأصبحوا جزءًا من رعية الدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وظلوا أغلبية غير مسلمة في بلادهم لعدة قرون، حتى دخل منهم من دخل في الإسلام دون إكراه، بل ودون ترهيب، وفي أحيان كثيرة دون ترغيب. وبقي منهم على نصرانيته أو يهوديته أو زرادشتيته، شاهدين بذلك على هذه السماحة غير المسبوقة التي جاء بها الإسلام، والتي وضعتها دولته وحضارته في الممارسة والتطبيق.

ومن هنا لا يكون غريبًا أن نجد المستشرق الإنجليزي "سير توماس أرنولد" (١٨٦٤-١٩٣٠م) يعلن عن سماحة الإسلام عندما يقول وهو شديد التمسك بالنصرانية: "إنه من الحق أن نقول إن غير المسلمين قد نعموا -بوجه الإجمال- في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوربا في الأزمنة الحديثة"[١].

ويظهر تسامح الإسلام في مواقفه الكريمة مع غير المسلمين في عهود الأمان التي أعطيت لهم؛ فكانوا يقيمون في بلادهم بناء على هذه العهود تحت مظلة الإسلام، وكان الأمان يشكل القاعدة الإسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين البلاد المفتوحة، وبمقتضى هذا الأمان أتيح لغير المسلمين كثير من الحقوق والحريات. وكان عهد الأمان الذي عَقده الرسول الكريم لأهل نجران، هو المثال الذي عقدت على منواله عهود الأمان اللاحقة.

وفي الحقيقة يمكن التأسيس لكل هذه الوقائع التاريخية التي تحضّ على التسامح وتؤكد على ضرورة التعاون بين الإنسان وأخيه الإنسان على الرغم من اختلاف الديانات وتعدد الملل والنحل في عهد "الصحيفة" الذي أعطاه النبي ﷺ دستورًا لليهود من ساكني المدينة، حيث وضع بالصحيفة دستورًا لم تحلم البشرية في عمرها الطويل بمثله.

وتحدد الصحيفة -فيما يرى الدكتور حسين مؤنس- واجبات أعضاء هذه الجماعة وحقوق كل منهم، العدل والبر (والبر معناه الوفاء)، ولهم الأمن على النفس والمال. والجماعة كلها هي التي تقوم بحماية الأمن في داخلها "ويد المؤمنين جميعًا على من ابتغى دسيسة فساد بينهم". والجماعة متعاونة لمساعدة المحتاج والمدين والمريض، وهي ملزمة بمعاونته في فداء أو أسر، وكل مجموعة قبلية من أهل المدينة مسؤولة عن الأمن في مواطنها وعن حماية المدينة من ناحيتها، والأمة كتلة واحدة "يد المسلمين واحدة" ولا تعقد جماعة صلحًا إلا باتفاق الجماعة. لكل مجموعة رياستها وهم مسؤولون عن جماعتهم من كل ناحية. والقاعدة في التعامل هي البر أي الوفاء، فمن نصوصها: "والبر دون الإثم" أيْ إن الوفاء دون الحنث و"أن الله على أبر هذا" أيْ إن الله يؤيد أصفى وأصدق ما في هذه الوثيقة من الوفاء.

وإذا هوجمت المدينة فلابد أن يشترك الجميع في الدفاع. أما إذا قامت جماعة بحرب خارج حدودها فلا إلزام، وليخرج من يريد، ولكن الرسول ﷺ كان إذا ندب أحدًا لمهمة سارع في التنفيذ مختارًا سعيدًا. وهذه القواعد واردة في القرآن الكريم بهديه وأخلاقه التي هي مكارم الأخلاق أو المروءة الإسلامية التي حلت محل المروءة الجاهلية[٢].

وإذا كان الدكتور حسين مؤنس قد غلّب -في تحليله للصحيفة- جانب الأمة على الدولة، ورأى في الرسول الكريم نبيًّا وسراجًا منيرًا، لا قائدًا عسكريًا أو قائد دولة دبلوماسيًّا، فإن الدكتور "كامل الدقس" يرى في الصحيفة إعلانًا عن "قيام دولة قانونية في الأرض"، وقد نظم الرسول الكريم جميع شؤونها ورسم سياستها الداخلية والخارجية بصفته الرئيس الأعلى للدولة.

ويقول الدكتور كامل الدقس في ذلك: "لقد وضع الرسول دستورًا للدولة نظم فيه شعب دولته وحدد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وبيّن فيه الحقوق والواجبات على مواطني الدولة من اليهود وقبائلهم، ومن القبائل المتفرقة من الأوس، والخزرج، والمهاجرين... وهذا الكتاب الذي يعرف بعقد "الصحيفة" يعدّ دستورًا فريدًا لم تحلم البشرية في عمرها الطويل منذ نشأتها وإلى يوم الناس هذا بمثله"[٣].

ولعل ألصق القواعد بموضوعنا، تلك التي تنص

hiramagazine.com

"على إباحة الحريات: حرية العقيدة، والإقامة والتنقل، ومزاولة الحرف دون تقييد ما دامت هذه الحريات لا تضر مصلحة المجموع وتراعي المبادئ الأخلاقية في السلوك الفردي وفي العلاقات الإجتماعية"[٤].

ومهما يكن الأمر في استخلاص دلالات هذه الصحيفة في جانبيها السياسي والتنظيمي أو في التحرير الفقهي لبنودها، فإنها حافلة بدلالات أخرى تتعلق بما وراء البنود من التوجه نحو وحدة الشعور بالجماعة الإنسانية، وحميمية العلاقات فيما بين أفرادها على اختلاف الانتماء الديني والقَبَلي. وتم في الصحيفة إشارات إلى "المعروف والقسط" اللذين اعتُبرا مدخلاً عامًّا لها، وإلى أن "ذمة الله واحدة"، و"أن سلم المؤمنين واحدة"، و"أن النصر للمظلوم"، و"أن الجار كالنفس غير مضار"، و"أن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره"، و"أن البر دون الإثم"، و"أن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة"، وأن اليهود مواليهم وأنفسهم "على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة"، و"أن الله جار لمن بر واتقى".

إن هذه الصحيفة قد صدرت عن رؤية إيمانية شاملة ترى إلى الآخر المختلف عقديًّا أو دينيًّا على أنه توسعة للذات وميدان لفضائلها ولما تتمتع به من معروف وقسط وبر وتقوى وصدق، وحسبك ذلك كله التماسًا لوحدة الشعور الإنساني في المجتمع الواحد أو تعزيزًا لوحدة الخلق، على تنوع مللهم ونحلهم وألسنتهم، في مقابل وحدانية الخالق الذي شاء سبحانه أن يجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وأن يجعل منهم شرعة ومنهاجًا، وقضت حكمته أن لا يزالون مختلفين حتى يبلوهم أيهم أحسن عملاً، وأيهم أتقى له وأقوم سبيلاً.

وقد سار خلفاء الرسول ﷺ على منهاجه القويم في عدم الإكراه في الدين؛ جاءت امرأة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في حاجة -وكانت مشركة فدعاها إلى الإسلام فأبت- فقضى حاجتها، لكنه خشي لأن يكون في تصرفه هذا ما ينطوي على إكراهها للدخول في الإسلام، فاستغفر الله عما فعل وقال: "اللهم إني أرشدت ولم أكره".

ونصت معاهدة خالد بن الوليد ﷺ لبلاد عانات على "أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة، وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم". كذلك معاهدة حذيفة بن اليمان ﷺ مع أهل ماه دينار على "إعطاء الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرواحهم ولا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة". وفي مصر استطاع عمرو بن العاص ﷺ أن يعقد مع من سلّموا له حصن بابليون، صلحًا شرط لهم فيه أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبون وأن تقر أموالهم وكنوزهم في أيديهم".

وفي ضوء العهود السابقة وغيرها في عصر الراشدين وكذلك عصر الأمويين، فقد تأكد لنا أنه كانت تقوم على أساس المعاملة المتسامحة مع أهالي الأديان الأخرى، وإتاحة كافة الحريات والحقوق، فأعطيت لهم الحرية الدينية في ممارسة شعائرهم وطقوسهم، كذلك نالوا الحرية المدنية من خلال ما أتاحه لهم المسلمون من حماية وأمان على أرواحهم وأموالهم وأنفسهم وما إلى ذلك، مما يجعلهم يعيشون كيفما شاؤوا.

كما أنه لم يكتف المسلمون بهذه العهود التي تبرم مع غير المسلمين مكفولة بهذه الحريات السابقة، فوجدنا الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ حريصًا على أن يلحق هذه العهود بوصايا من قبله موجهة إلى كافة القادة والولاة بأن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفوا لهم بعهودهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم.

وهذه الروح التي نصت عليها تلك العهود لم تكن مجرد إطار نظري وُضع للمعاهدين، لكنه طبّق عمليًّا في كل البلاد المفتوحة. ولم يكن فرض الجزية على أهل الذمة عقابًا لهم لامتناعهم عن الدخول في الإسلام، ولكنها كانت مقابل الحماية لهم وتأمينهم في دار الإسلام. فإذا كان المسلم يتحمل كثيرًا من الأعباء باعتباره دافعًا للزكاة ويؤدي الخدمة العسكرية للزود عن الإسلام، فلا أقل من فرض الجزية على الذمي، لذلك فهناك ارتباط بين المنعة والجزية حتى يتعادل الفريقان في تحمل المسؤولية باعتبارهما رعاية لدولة واحدة، كما تعادلا في التمتع بالحقوق وتساويا بالتمتع بالمرافق العامة للدولة.

hiramagazine.com

في ضوء المبادئ الإسلامية النبيلة وهدي الدين القيم وأهدافه السامية، وعلى أساس من إقامة ميزان العدل وإشاعة الحرية والمساواة ورفع مشعل الهداية، جاء الفتح الإسلامي لبيت المقدس مرتين، مرة في أيام عمر بن الخطاب، وأخرى في أيام صلاح الدين الأيوبي ﷺ. وقد فتح عمرو بن العاص ﷺ بيت المقدس، بعد أن حاصر المدينة، ولما طال الحصار على أهلها طلبوا الصلح على شرط أن يكون المتولى عمر بن الخطاب ﷺ، فكاتبهم عمر وكتب لهم كتابًا أمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم وعقائدهم. وتأتي رسالة عمر ﷺ إلى أمراء الشام نموذجًا للتسامح الديني والسلوك الحضاري الراقيين فلا تهدم كنائسهم ولا يكرهون على دينهم. وحين دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس، وفي كنيسة القيامة، ولما حان وقت الصلاة، صلى عمر على مقربة من الكنيسة ولم يصلّ داخلها خشية أن يتخذ المسلمون صلاته في داخل الكنسية ذريعة فيضعوا أيديهم عليها.

وقد حظي نصارى بيت المقدس بالرعاية الكاملة، وكفلت لهم الدولة الإسلامية الحرية المطلقة في ممارسة عقائدهم الدينية وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية وقد عني بهم سلاطين المماليك حتى أن رئاسة بطريرك السريان كان يصدر مرسومًا من السلطان في القاهرة، وأُعفوا من الرسوم المفروضة على زائري كنسية القيامة والتوصية عليهم بالإحسان لهم ومعاملتهم معاملة حسنة، وفي عهد السلطان "برسباي" استمرت هذه الامتيازات.

وبمثل هذه الروح الطيبة فتح المسلمون أبواب بلادهم أمام اليهود، ليدخلوا آمنين وينتقلوا بين ربوعها سالمين، وسمحوا لهم بممارسة نشاطهم الخاص والعام على أوسع نطاق، وأباحوا لهم التتلمذ على أيديهم والأخذ عنهم، وأجازوا لهم الكثير من المهام والأعمال والمناصب الرسمية وغير الرسمية، فصار منهم التجار والصيارفة والأطباء والوزراء. ولا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في بيت المقدس في الوقت الذي أمرت الكنسية في غرب أوربا بتحطيم هياكل اليهود وإهدار دمهم.

وتشير مصادر التاريخ الأيوبي إلى أن القدس في عصر صلاح الدين، قد شهدت قدرًا عظيمًا من التسامح أتاح لساكنيها من غير المسلمين الفرصة لممارسة أنشطتهم اليومية بحرية مطلقة، مما أتاح الفرصة لصلاح لدين لكي يعنى بالخدمات العامة وإنشاء البيمارستان.

إن التسامح الذي نراه هنا، فعل إيجابي ومروءة نفسية وتوجّه صادق نحو الآخر، لا موقف سلبي اضطراري، خاصة وأن الاختلاف بما هو حقيقة كونية وإنسانية لا ينبغي أن يحول دون استشعار معنى الرحم الجامعة لبني الإنسان. ولعل مقاربة أخرى من الصحيفة وأخواتها أن تظهرنا على اعتراف الإسلام بالتعددية الملية في الأرض، وعلى أن ذلك شرط موضوعي للتعارف الذي يتجاوز معرفة الآخر إلى "القسط بالمعروف" معه، وإلى أن يكون "كالنفس غير مضار" و"أن يكون البر المحض" هو ضابط العلاقة معه وميزانها.

ومن مظاهر تسامح المسلمين مع غيرهم من أصحاب الملل الأخرى، ما ألفيناه لدى الأندلسيين ليس فقط من منح المسيحيين واليهود حرية العبادة وإقامة الكنائس والأديرة والبيع، وممارسة شعائرهم الدينية، فضلًا عن استخدامهم في وظائف الدولة إلى حد اتخاذ بعض الوزراء والكتاب منهم، حتى لقد اشتهر من اليهود والنصارى عدد من أعلام الأندلس في الطب والفلسفة والأدب وسائر العلوم والفنون، بل أيضًا تجلى هذا التسامح في مشاركتهم أعيادهم التي تختص بهم. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الهوامش

(١) الدعوة إلى الإسلام، لسير توماس أرنولد، ص:٧٣٠-٧٩٢، ترجمة: الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٧٠.

(٢) الصحيفة أنموذج من التسامح في الإسلام: إبراهيم العجلوتي، ص:٤٩-٥٠.

(٣) الدول الإسلامية، للدكتور كامل الدقس، ص:٧٩ ، دار الأرقم، عمان ١٩٩٣.

(٤) بحوث في الإسلام والمجتمع، للكدتور علي عبد الواحد، ص:٧٣، القاهرة ١٩٧٧.

hiramagazine.com

د. محمد باباعمي*

تلّة الرُّماة

غزوة أحد... تلك التي كانت للمسلمين درسًا لا يُنسى، وعبرة لا يُشترى بها ملء الأرض ذهبًا؛ ذلك أنَّهم طعموا -فيها- مذاق الهزيمة، ونالهم منها شيء من ريح الانهزام... وحينها تيقّنوا أنَّ النصر ليس وعْدًا أبَديًّا، وأنه أسباب ومقدمات، وبواعث وتحضيرات إذا ما وفَوها حقّها ومستحقها نُصروا وغَلبوا، وإلا انكسروا وغُلبوا، وهذا فحوى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾(النساء:١٢٣).

ولقد كان لـ"تلّة الرُّماة" رمز ودلالة؛ ذلك أنَّ النبي ﷺ بتخطيطه المحكم وبتكتيكه الملهم، أمر الرماة بملازمة التلة في جميع الظروف ومهما كانت تقلُّبات الحرب، بهذا تم الانتصار ابتداء للمسلمين، ولم يتمكّن الكفار وعلى رأسهم القائد الصعب المراس خالد بن الوليد، لم يتمكّنوا من مباغتة الجيش المجاهد من الخلف، فهرب جيش قريش ورجع القهقرى.

لكن في هذه اللحظة الصعبة تغير كلُّ شيء، وبخاصة حين بدأ الجنود يجمعون الغنائم ويحصدون المكاسب.

لحظتها همَّ عدد من الرماة بالمغادرة، وكان الصحابي الجليل عبد الله بن جبير ﷺ يذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ، إلا أنهم وإن لم يعصوا أمره ﷺ غير أنهم أوَّلوه أنَّ الأمر لا يشمل نهاية المعركة وإنما أوانها فقط. فغادروا التلّة، وتركوا الظهر مكشوفًا، ومكّنوا لخالد ومَن تحت إمرته رقاب الجيش المسلم؛ فدارت الدائرة لصالح الكفار، ولولا أنَّ الله سلّم لكان ما كان من أمر رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ﷺ.

ما من شكٍّ أني لست بصدد ديباجة مقال عن السيرة النبوية، ولا في مقام استنباط العبر والمعاني اللامتناهية من هذا الحدث الخطير في تاريخ البشرية قاطبة، وإنما مقصدي هو البحث عن "تلّة الرماة" في الصراع الحضاري الذي تدور رحاه في عصرنا بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وبين الإيمان والجحود.

فأين هي تلة الرماة اليوم؟ ومن هم الرماة المكلفون بالصبر عليها؟ وهل سيتمكّنون من استنباط العبر، ومن ثم يلازمون التلة مهما كانت الظروف؟ أم أنهم يستعجلون ويلتحقون بصفوف المنتصرين رغبًا أو رهبًا؟.

أجزم أنَّ تلة الرماة اليوم هي "حقول التربية والتعليم"، وفي المستوى الأشمل هي "الخدمة ونفع الخلق". ذلك أنَّ هذه التلة، ليس فيها مكاسب، ومن عليها لا يبدو أنه يحارب، ولا يقال عنه "بطل"، مثلما هو الحال مع "السياسي" و"الاقتصادي" و"المشاهير" من كلِّ فن وحقل... ثم إن النصر قد لا يُنسب لهم، وقد يعتقد الكثيرون أن هؤلاء لا ناقة لهم ولا جمل فيما يناله الناس من تقدم وإنجاز... وبالتالي، قد يُظلمون، وقد لا يفْهم أحد حقيقتهم، وقد يكونون مثار جدل.

ثم إن الصبر على تلة الرماة مهما كانت الظروف والأحوال، أمر عسير، ومرتقى صعب، لا يقدره إلا الفحول، ولا يستطيعه إلا المقرَّبون، ولا يملك الثبات عليه إلا المؤيَّدون الملهَمون الربّانيون ممن محق "أَنَاه" وسحقها، وانصهر في الجماعة صبرًا وعشقًا، والتزم الوعي الجمعي مذهبًا ومَسلكًا، ولم يكن في إشارته يحيل إلا إلى الله تعالى وحده، هو صاحب الأمر والملك والخلق، لا شيء يكون إلا بحكْمه وعلى مقتضى حِكمته.

إن الصبر على تلة الرماة مهما كانت الظروف والأحوال، أمر عسير ومرتقى صعب، لا يقدره إلا الفحول، ولا يستطيعه إلا المقرَّبون، ولا يملك الثبات عليه إلا المؤيَّدون الملهَمون الربّانيون ممن محق "أَنَاه" وسحقها، وانصهر في الجماعة صبرًا وعشقًا.

حراء

على تلة الرماة اليوم يقف المعلِّمون الصادقون، والخدام المتفانون، والنافعون لخلق الله الأحمديّون... هم قلّة إذا قِيسوا بأهل المناصب والوظيف، وهم ثلّة يسيرة بين صفوف أهل المكاسب والرغيف، وهم "لا شيء" في عيونهم؛ إلا أنهم مصدر كل بركة ورحمة تنزّل من عند الله، سواء في ذلك عرفهم العارفون أم جهلهم الجاهلون أم جحدهم الجاحدون... لا فرق.

الخدمة ونفع العباد بلا مقابل ولا أجر -فيما نحسب، وفيما نرى، وبناء على الخيارات الشاقة والشديدة التي تخيرتها طواعية وإيمانًا- تقف اليوم على تلة الرماة، ذلك أنها اختارت التربية والتعليم، ونشر الخير والبر، وإدخال السرور على البشر من كل أصقاع العالم، وكشف الكرب عن المظلومين المقهورين من كلِّ جنس ولون، دون أن يبحثوا عن مقابل أو يتبجحوا بذواتهم، وإنما يتولون بذلك بقلوب مؤمنة، وأفئدة مطمئنة، وأرواح زكية، ونفوس مرضية... وهم يردّدون في كل وقت وحين: "فَدَاكَارْلِيق يا هو"[1]، "أَدَب يا هو"، "إيمان يا هو"، "يقين يا هو"، "قَبُول يا هو".

هؤلاء ومَن كان على شاكلتهم، بغضّ النظر عن انتمائه وجغرافيته، وعن فصله وأصله... هؤلاء هم رماة هذه الأمة، وظنّنا بحول الله تعالى فيهم، أنهم سيثبتون، وأنهم سيصبرون، وأنَّ الإسلام بفضلهم سيعمّ الأكوان، وسيغمر العالمين... ﴿وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(الرعد:٣١). ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(1) "فَدَاكَارْلِيق" في اللغة التركية تعني العطاء والتضحية.

hiramagazine.com

د. إدريس التركاوي*

احتضنْ خيار البشر.. امنحهم قلبك.. خذهم إلى المكان الأسمى من حبك..
وفي الوقت نفسه كن ليّنًا تجاه مَن ينكر شأنك، ويجافي فكرك.. سمحًا كالمسيح كن..
عطوفًا كقلبه.. محييًا لموتى الأرواح كأنفاسه.

الموازين

الجمال الابتلائي والجمال التعبدي

١ الجمال في دلالته الأصلية الابتدائية هو الحسن والبهاء والزينة، وإذا تعلق بالإنسان اشترط فيه التناسق والكمال في جميع الأحوال في صيغة كلية لا تقتصر على جزئي من جزئياتها. قال الراغب الأصفهاني في "المفردات" في نص "هو المؤسس لهذه الكلمات المتواضعة": "الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة، فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شين. والزينة بالقول المجمل ثلاث: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالمال والجاه. فقوله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(الحجرات:٧) فهو من الزينة النفسية، وقوله ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ﴾(الأعراف:٣٢) فقد حمل على الزينة الخارجية؛ وذلك أنه قد روي أن قومًا كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنُهُوا عن ذلك بهذه الآية. وقال بعضهم: بل الزينة المذكورة في هذه الآية هي الكرم المذكور

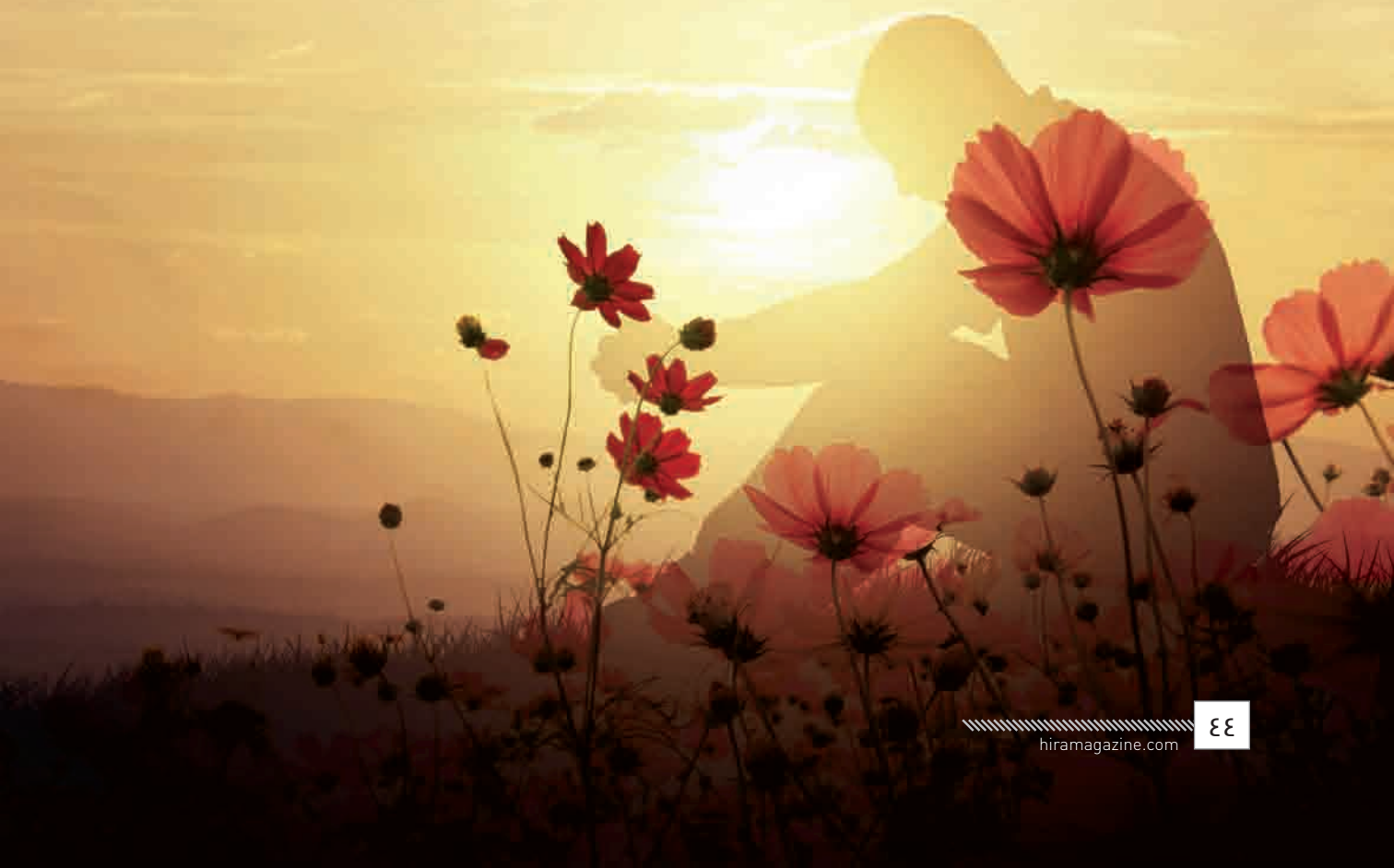

في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)". وهو في التصور الإسلامي مقصد أصيل وظيفته خدمة كليٍّ من الكليات المقاصدية الكبرى. وقد تعبر عنه اللغة التجريدية كما تعبر عنه اللغة التصويرية، وذلك غالب الشريعة كما هو الحال بالنسبة لمجموع الصور الفنية اللغوية المنظومة في آي القرآن وجوامع كلم النبي ﷺ، وكذا الصور التجسيمية إذا أمنت الوقوع في حرم أصول العقيدة وقواعد التوحيد.

والجمال في التصور الإسلامي، سواء تعلق بصورة الإنسان أم بفعله ونظامه النفسي، أم بنعم الله الوجودية في الخارج، كل ذلك لا يخلو من تأطير نوعين من الإرادة مرتبطين بمشيئة الله في خلقه هما إرادة التكوين، وإرادة التكليف. فما كان من الأولى فهو راجع إلى إرادته سبحانه الكونية القدرية المتعلقة بربوبيته وخلقه، وما كان من الثانية فهو راجع إلى إرادته الأمرية التشريعية المتعلقة بألوهيته وشرعه. فالأولى عنوانُها توحيدُ الربوبية، والثانية عنوانُها توحيدُ الألوهية. والأمران غير متلازمين؛ فقد يقضي ويقدر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يأمر بما لا يقدره ولا قضاه. وقد يجتمع الأمران معًا، وقد ينفرد الكوني فيما وقع من المعاصي كما ينفرد التكليفي فيما وقع من الطاعات. وإذن فالإرادة القدرية الخلقية هي "المتعلقة بكل مراد؛ فما أراد الله كونه كان، وما أراد أن لا يكون فلا سبيل إلى كونه... والإرادة الأمرية هي المتعلقة بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه. ومعنى هذه الإرادة أنه يحب فعل ما أمر به ويرضاه، وكذلك النهي يحب ترك المنهي عنه ويرضاه".

في الجمال الابتلائي

إذا ثبت هذا، فالجمال الابتلائي هو أسباب الزينة التكوينية الابتلائية الموضوعة سببًا للاستمتاع على الإطلاق، بناء على أن "الأسباب والمسببات موضوعة في هذه الدار ابتلاء للعباد وامتحانًا لهم، فإنها طريق إلى السعادة أو الشقاوة". أي هو جملة النعم التي امتن الله بها على عباده وجعلها حجة على خلقه، فهي دائمة الاسترسال على العبد دون انقطاع. لكن ذلك كله مسيج بغطاء مشيئة الله في خلقه بقصد ابتلائهم واختبارهم قضاء وقدرًا. وعلى هذا النوع من الجمال وضعت أصول تلك النعم في الكون ابتداء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الكهف:٧)، وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النساء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾(آل عمران:١٤)، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾(الملك:٥)، وقال أيضًا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(الأعراف:٣٢).

فهذه الزينة إنما وضعت للناس -جميع الناس- فلا يتعلق بها مدح أو ذم من حيث هي كذلك قبل التكليف بمقتضياتها اللازمة عن الدخول في قانون الانتساب الإيماني، وإن تعلق بها شيء من ذلك فهو تعلق عام وليس خاصًا كما تعلق العالمان العلوي والسفلي بالمحبة والإرادة عمومًا. قال ابن القيم في تعليقه على الآيات السالفة: "فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموت والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء". وقال سيد قطب مقررًا هذه الحقيقة: "ونظرة إلى السماء، كافية لإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء الكون وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي وأن تصميمه قائم على جمال التكوين... فكل شيء فيه يؤدي وظيفة بدقة وهو في مجموعه جميل". وقد أشار الأستاذ الأنصاري -رحمه الله- إلى هذه النكتة بإشارة لطيفة فقال: "فالزينة الكونية مبعث وجداني للتحلي بالزينة الإيمانية". والكون هنا كما ترى، ليس بمعناه الفيزيائي الضيق فقط، ولكن بمعناه الابتلائي الرمزي الراجع إلى القضاء والقدر بدليل مقابله وهو "الزينة الإيمانية". ثم لأن الجمال التكويني لابد وأن تكون أشياؤه التي يزدان بها الناس، مغايرة لهم منفصلة عنهم. قال الدكتور توحيد الزهيري في تعليقه على آية الزينة السالفة في سورة الكهف: "بنص هذه الآية نعلم أن الجمال الذي تبديه الأشياء هو حقيقة موضوعية توجد خارج النفس الإنسانية وتستند إلى عمل إلهي هو "التزيين"، والغاية منه هو الابتلاء". والجمال الإيماني التعبدي شرارة من

hiramagazine.com

باطن المؤمن متصلة به غير منفصلة.

في الجمال التعبدي

إن الجمال الابتلائي إذن، قدَر سُقي بماء المشيئة القهرية الخلقية، وخرج من ينابيع حروف ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لتسطر قواعد التكليف وتنظيم الهوى، فلا يبقى المكلف كالبهيمة المسيبة تسترسل في نيل لذاتها واقتناص شهواتها دون داع يقيّد أو حامل يزع عن الوقوع في المحظور. ومجموع ذلك هو قصد الشارع العام من وضع الشريعة، كما قال أبو إسحاق: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد لله اضطرارًا". فالجمال التعبدي إذن، من لوازم عبادة المؤمن الاختيارية والخروج من عبودية الاضطرار، والتحلي بزينة أصل الإيمان هي حقيقته المجسدة له كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(الحجرات:٧). والباعث على ذلك توحيد الرب ﷻ وتفريده بالعبادة وحمده وشكره على النعم الموضوعة في الكون أسبابًا تكوينية لذلك. ومن هنا قالوا في تعريف "الحمد" -لمناسبته له- إنه "الوصف بالجميل على الجميل الاختياري للتعظيم". والشكر أخوه في هذا الميدان، غذاهما أصل الإيمان بلبانه فصارا من أبنائه. قال ابن القيم: "فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه وهو جمال باطن". وأما التوحيد فهو القناة الابتدائية المعرفة بذلك كله، الحاكمة عليه في سلم منازل الإيمان، لأنه يستلزمهما في منظومة التشريع الإسلامي ومقاصده التعبدية، فيكون هو سفينة النجاة حينما تتكاثر النيات وتتشعب طرقًا ملتوية في بحر الإرادات، حتى إذا ارتقى على متن صهواته العبد الحائر في الفلك السائر كان قد حصل على أمانه -أولاً- من اختطاف أمواج النزوات والرغبات المرعبة، ثم جال -ثانيًا- بجوانحه المطمئنة في فضاء أسراره، هنالك يصادف -ولو تبعًا- معارجَ الإيمان فيتنسم من صفو عليلها قطعًا تنشل رئتيه من حريق التيه القاتم، فتحيا بانتشاقها ويطرب قلبه لشذاها، فلا يزال يذوب كاللحن على وتر، ولا يزال يرتقي بحادي المحبة في معارجها يضاهي به حب الطيور ربيعها، وحب الزهور عبيرها، بل وحب الطريد لمأمنٍ يستدفئ به من برد الشهوات القارس. قال الأستاذ النورسي يجلي حقيقته الجمالية: "إن ثمرة واحدة وزهرة واحدة وضياء واحدًا، كل منها يعكس كالمرآة الصغيرة رزقًا بسيطًا ونعمة جزئية وإحسانًا بسيطًا، ولكن بسر التوحيد تتكاثف تلك المرايا الصغيرة مع مثيلاتها مباشرة ويتصل بعضها بالبعض الآخر، حتى يصبح ذلك النوع مرآة واسعة كبيرة جدًّا تعكس ضربًا من جمال إلهي يتجلى تجليًا خاصًّا بذلك النوع، فيظهر سر التوحيد جمالاً سرمديًّا باقيًا من خلال ذلك الجمال الفاني المؤقت... بينما إن لم ينظر إلى ذلك الجمال بنظر التوحيد، أي لولا سر التوحيد؛ لظلت تلك الثمرة الجزئية سائبة وحيدة فريدة معزولة عن مثيلاتها فلا يظهر ذلك الجمال المقدس ولا يبين ذلك الكمال الرفيع، بل تنكسف حتى تلك اللمعة الجزئية المتعلقة منها وتضيع وتنتكس منقلبة على عقبيها من نفاسة الألماس الثمين إلى خساسة قطع الزجاج المنكسر". فالتوحيد -بما هو كلي معنوي مستفاد من حقيقة النعم ووظيفتها وليس من هياكلها المادية- هو المقصود ابتداء من تلك النعم والآلاء المتجسدة في تلك الهياكل، فهو جمال تعبدي باطن يترجمه جمال تلك النعم الراجعة إلى المشيئة الخلقية القدرية الحاكمة على الجميع في الخلق. فالتوحيد الممثل هنا لحقيقة الجمال التعبدي، يجعل الناظر يبصر الموجودات الكونية في الدنيا بما هي مرآة للجمال الإلهي السرمدي المطلق. ومن هنا -وقبل كل شيء- كان "الشرك استهانة بشعة بالكون وتعدٍّ عظيم عليه وحط من قيمته وتهوين من شأنه". قال الشاطبي يسرح في المساق نفسه: "فالحاصل أن ما بث فيها (أي الدنيا) من النعم الذي وضعت عنوانًا عليه -كجعل اللفظ دليلاً على المعنى- باقٍ وإن فني العنوان". وإنما الذي وضعت عنوانًا عليه هو التوحيد وهو جمال مسترسل لا يفنى، يدل عليه جمال النعم الكونية الابتلائية الذي عما قريب سيفنى دونه كفناء الرسم دون الروح. وإنما جعل هذا لخدمة ذاك

hiramagazine.com

وتخليصه من التبعات التي تعلق به في الدنيا والآخرة. قال في سياق المقابلة بين النوعين بعد سرده لآيات الزينة والجمال: "فامتن تعالى وعرف بنعم من جملتها الجمال والزينة وهو الذي ذم به الدنيا في قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾(الحديد:٢٠)، بل حين عرف بنعم الآخرة امتن بأمثاله في الدنيا وهو كثير... فأنزل الأحكام وشرع الحلال والحرام تخليصًا لهذه النعم التي خلقها لنا من شوائب الكدرات الدنيويات والأخرويات. فهذه النعم بدون خضوع لقوانين الامتثال التكليفي التعبدي تصير أشباحًا بلا أرواح، ورسومًا بلا عنوان يترجم حقيقتها ووظيفتها ويضفي عليها جمالها ورونقها. أو بعبارة العلامة النورسي "تتتكس منقلبة على عقبها من نفاسة الألماس الثمين إلى خساسة قطع الزجاج المنكسر".

وأما ما يتعلق بلباس العبد وعمرانه المادي وفعله الخارجي عمومًا، فهو ترجمة لجمال الإيمان فيه ولرمزيته المتفجرة عيونًا رقراقة وأزهارًا يانعة في قلبه ضاربة بأعماقها في مجاهيل الوجدان والشعور. ومن هنا نفهم قول الراغب الأصفهاني في جعله آية الزينة في سورة الأعراف مؤطرة ضمن حقيقة "الزينة الخارجية" في نصه السابق، لأنها وردت في اللباس كما هو متداول عند المفسرين وقد أشار إليه.

فبؤرة هذا النوع من الجمال، مرآة تصويرية لنعم الله الكونية عبر قنوات الشكر والحمد والتوحيد، ضاربة بأعماقها في صلب شرايين قلب العبد النفسي والشعوري، لأن قلبه -كسائر القلوب- "أعظم مرايا العالم وأكثرها سعة وأشفها شفافية وأتقاها صفاء، لذلك جعل موضع نظر الله تعالى، ومهبط أنواره وتجلياته ومستودع إلهاماته وخزين غيوبه ووعاء وحيه وخطابه". فإذا رسخ قلبه في الإيمان وامتلأ هذا المستودع بتلك الأنوار، فاض على الجوارح والعمران، والمشيمة المغذية هي القرآن.

فصار الجمال الكوني -بذلك الاعتبار- مبعثًا شعوريًّا للجمال التعبدي التكليفي، وهذا مدلول له والآخر دليل عليه في معادلة جمالية متبادلة الطرفين طردًا وعكسًا في حركة العبد التعبدية. ومن هنا استحال -في حقوق الله- فصل حق الربوبية عن حق الألوهية في منظومة التوحيد الوجداني -دون تقسيمات الكلام الجافة- وأنه لا محبة من العبد خالصة إلا بمجموعهما.

ومن هذا المسلك أيضًا خرجت صور التشكيل الإيمانية عبر التاريخ الإسلامي، لترسم لوحات فنية تحكي فيها قصة عروج القلب عبر مدارج السالكين إلى الله رب العالمين، من مثل "منطق الطير" لفريد الدين العطار، و"كشف المحجوب" للهجويري، و"مدارج السالكين" للعلامة ابن قيم الجوزية، و"رحلة الطير" لحجة الإسلام الغزالي، و"التلال الزمردية" للعلامة محمد فتح الله كولن، و"قناديل الصلاة مع جمالية الدين" لأستاذنا فريد الأنصاري... وغيرها كثير من (سمفونيات) الجمال التعبدي التي عزفتها ألسنة قلوب كثير من الربانيين قدماء ومحدثين.

وخلاصة الأمر المجزئة في السياق، أن إدراك الجمال الكوني إنما تكفي فيه الفطرة فقط، لأن أسبابه موضوعة -كما قيل قبل- لاستدعاء متعة الناس من حيث هم كذلك على الإطلاق. وأما التعبدي فهو ذوقي انفعالي خاص تالٍ للأول لابد فيه من الخضوع لمبادئ التكليف، لأن الفطرة فيه قد تضعف عن معرفة الأسباب والشروط المقتضية له وكذا الموانع العارضة فيه لقصد الشارع. ومن هنا سقط تذوق غير المسلم للصور التشكيلية في مهاوي الاستصنام التألهي للمخلوقات تارة ولشهوات "الليبيدو" تارة أخرى. والله سبحانه هو الواقي. ■

(*) كاتب وباحث من المغرب.

المراجع

(١) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب.

(٤) جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، لفريد الأنصاري.

(٥) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن، لتوحيد الزهيري.

(٦) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، لـ"الشوكاني".

(٧) الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي.

(٨) الصور والمرايا في تراث النورسي الفكري والوجداني، لأديب إبراهيم الدباغ.

hiramagazine.com

د. خالد عمارة*

هل هناك ما يسمى طبًّا إسلاميًّا؟

قد ينظر البعض للطب كعلم مثل كل العلوم المادية، ويعتبره مشتَركًا إنسانيًّا عامًّا بين كل البشر. وهذا صحيح بعض الشيء، لكن لا يمكن النظر إلى الطب البشري كعلم مماثل لعلوم الميكانيكا أو الرياضيات والحساب، ذلك لأن الطب يتعامل مع الإنسان، وهذا يختلف عن الآلات والجماد. فالإنسان جسد وروح، وبالتالي فالتعامل مع الأمراض العضوية دون مراعاة البعد الروحي والنفسي لا يفيد، وربما يأتي بنتيجة عكسية. وهذا ما أثبتته الأبحاث التي أثبتت العلاقة المباشرة بين القدرة على الالتئام والشفاء للجسد، وبين الحالة النفسية والنوم والهواء والغذاء وعوامل أخرى كثيرة كلها تتعلق بالروح. لا توجد كيمياء إسلامية ولا فيزياء إسلامية، ولكنها علوم عالمية يشترك فيها كل البشر مع ضوابط أخلاقية تضبط استعمال هذه العلوم في الحياة والمجتمعات المختلفة، لكن هناك فلسفة إسلامية وفن إسلامي، لأنها علوم ترتبط بالروح والفكر والتاريخ. وبالتالي فما يتعلق بالروح يختلف عن ما يتعلق بالمادة من علوم؛ إن درجة غليان المياه هي ١٠٠ درجة مئوية على سطح الكرة الأرضية، وهذه الخاصية لا تختلف إن كان من يغلي المياه مسلم أو مسيحي أو غير ذلك. وهذه الخاصية لا تختلف إن كان من يغلي المياه يتحدث الصينية أو العربية. فهذا الجزء من العلوم مشترك إنساني عام بين كل الشعوب والبشر، وهو يتضمن علوم المادة والطبيعة. أما النوع الثاني من العلوم، فهو العلوم التي تختلف من مجتمع إلى آخر حسب العادات واللغات والديانة وطبيعة البشر وطبيعة الحياة والموروث الحضاري مثل علوم الفلسفة والتاريخ. وفي كثير من

الأحيان ننظر إلى الطب على أنه من النوع الأول من العلوم. لكن الطب البشري يتعامل مع الجسد والروح وليس فقط مع الصفة التشريحية للإنسان، إنما أيضًا مع أفكاره وطريقة تعامله مع ما حوله من مؤثرات.

ونحن في هذا المقال نفترض أن هناك ما يسمى طبًّا إسلاميًّا، ونقدم الأدلة على هذا. وهنا لا ندعو لفرض نموذج من العلم أو أسلوب من التفكير على باقي شعوب الأرض، ولكننا نبشر وننبه لمواطن القوة التي يملكها هذا الطب، والتي يمكن أن تحمل الخير لكل البشرية.

تاريخ الطب

في العصور القديمة كان اليونان يهتمون بالجانب الميتافيزيقي في كل الأفكار والفلسفات والعلوم بما فيها الطب، ولم يكن هناك اهتمام كبير بالجانب المادي من التجربة والمشاهدة. كان السحر والشعوذة والروحانيات تشكّل أكثر من ٩٥٪ من طرق العلاج، بينما يشكّل الجانب المادي والعلمي التجريبي أقل من ٥٪ من طرق العلاج المستعملة في علاج الأمراض. بل كان ينظر العديد من الفلاسفة في الثقافة اليونانية إلى التجربة أو أي عمل يدوي باحتقار مقارنةً بالفكر الفلسفي والخيال التحليلي. وكان تفسير الكثير من الأمراض -وربما العلاج- يرتبط بالأرواح الشريرة ولعنة الآلهة وما إلى ذلك من تفسيرات. وكان المسؤول عن علاج هذه الأمراض هو كاهن المعبد، الذي لديه

الطب الإسلامي هو طب يجمع بين العلوم المادية وما وراء المادية، بين الجسد والروح، بين العقل والنقل، بين عالم الغيب وعالم الشهادة... فيبحث في كليهما ويعالج في كليهما معًا دون أن يهمل طرفًا لحساب الطرف الآخر.

حراء

القدرة على التوسط لدى الآلهة لترفع هذا البلاء عن المريض! وكانت القرابين والنباتات العطرية، من الأدوات المستعملة للتقرب إلى الآلهة في هذا المجال. وجاءت بعدهم أوربا لتسير على نفس الطريق، لكن بدلاً من ربط الأمراض بالأرواح الشريرة ولعنة الآلهة، تم ربطها بالخطايا البشرية وغضب الكنيسة، وأصبح القس وكاهن الكنيسة هو المسؤول عن شفاء المرضى من هذه الأمراض. فكان الاهتمام بالروحانيات أعلى بكثير من الاهتمام بالجانب المادي للأمراض.

بينما في العصور الحديثة (عالم ما بعد القرن ١٦ الميلادي) أصبح أنواع الإصابات أكثر وحشية، والأمراض أكثر ضراوة كما نرى في إصابات الحروب والحوادث اليوم، أو الأمراض التي لم تعهدها البشرية مثل مرض نقص المناعة المكتسب. ومن ناحية أخرى تطور الطب المادي بدرجة كبيرة جدًّا في مجالات عديدة، سواء في العلاج بالأدوية أو بالجراحة أو بالأشعة... وأصبح التركيز بنسبة ٩٥٪ على الجانب المادي من المريض دون اهتمام يُذكر بالجانب الروحي للإنسان في حالات المرض أو ما قبل المرض أو في الوقاية من الأمراض. وساعد على هذا، تطور التخصص الدقيق في مجالات الطب وفروعه، فأصبح كل طبيب متخصص في منطقة معينة من الجسم -وربما في مرض محدد- لا يتخطى بعلمه هذا إلى أي فرع آخر من فروع الطب أو فروع العلم والحياة، مما جعل الطبيب ينظر إلى المريض بنظرة محدودة جدًّا؛ فمثلاً طبيب العظام ينظر لمريض يشكو من ركبته، على أنه ركبة وغضاريف وبعض العظام المريضة، ويهمل أو ينسى أن هذه الركبة جزء من هيكل عظمي متكامل يتحكم فيه عضلات وأعصاب، وله دورة دموية متصلة بالقلب، ويؤثِّر فيه

hiramagazine.com

الأغذية والجو والمناخ وطبيعة الحياة، وتتفاعل مع الهرمونات التي يفرزها الجسم وتسري في الدم لكل الأعضاء. وخلف هذا كله، روح الحياة والعوامل النفسية والعوامل الفكرية التي تؤثر على طبيعة حياة الإنسان وطريقة تفكيره وتعامله مع ما يتعرض له ومع من حوله من أفكار ومعطيات، وأن الإنسان جزء من الكون، بل وهو صورة مصغّرة من الكون.

ومن ناحية أخرى، نجد الكثير من الأبحاث والتقارير للمنظمات الطبية الدولية تتحدث عن الأمراض كأرقام ليس أكثر. فمثلاً تقرير عن أن مرض السكر يكلف العالم خسائر تقدّر بعشرين (٢٠) بليون دولار، أو عدد المرضى كذا ويكلفون الدولة كذا دولارًا، ويضيعون وقت العمل كذا ساعة... إنه النظر إلى البشر على أنهم آلات وأشياء لها وظيفة الإنتاج في ماكينة كبيرة بدون قلب ولا روح ولا عواطف، تحول الإنسان إلى رقم له ثمن.

مواصفات الطب في عصور النهضة الإسلامية

إذا نظرنا إلى العلوم بصفة عامة في العصر الإسلامي، فكان يحكمها ثلاثة قواعد رئيسية: العقل والنقل والتجربة. كان العقل يعني المنطق والتفكير، بينما التجربة تعني تجربة هذا المنطق على الواقع المادي والمحسوس، أما النقل فكان منه المقدس مثل الدين والأخلاق، ومنه غير المقدس مثل بحوث السابقين وخبراتهم والتي هي قابلة لإعادة التقييم والتجربة. وكانت وصية جابر بن حيان -أبو علم الكيمياء- هي "لا تعلِّموا الكيمياء لمن لا تأمنون دينه وخلُقه". فالبعد الأخلاقي يحكم كل العلوم فلا تتحول إلى وسيلة للأذى والتجبر. الملمح الثالث للعلوم في العصر الإسلامي، كان نبذ التقليد الأعمى والاهتمام بالتجربة والإبداع. لذلك إذا نظرنا إلى الطب في عصور النهضة الإسلامية حين كان العالم الإسلامي هو العالم الأول في كل العلوم المادية من اقتصاد أو فكر أو علوم أو قوة عسكرية، سنجد أن علوم الطب لها معنى مختلفًا وتقييمًا مختلفًا، وسنجد الأطباء لهم فكر مختلف وقواعد مختلفة عن ما قبله وما بعده.

في الطب الإسلامي خمسة محاور هامة شكّلت فكر الأطباء وطرق البحث والعلاج؛ أول هذه المحاور مقولة شهيرة "الإنسان رمز الوجود"، وهذه المقولة تحمل في طياتها الكثير من المعاني، فهي تؤكد على أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الكون، بل هو يحتوي في داخله صورة من الكون الأكبر. فالإنسان مرتبط بما حوله من أرض وسماء وكائنات وأجرام سماوية وأرواح وأفكار.

المحور الثاني هو أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وهذا يعني أن الإنسان ليس شيئًا مفعولاً به بلا إرادة، وتطورًا ظهر بالصدفة من سلاسلة القرود. ومن الناحية الأخرى، فالإنسان مستخلف من الله لرعاية الكون، وبالتالي فهو ليس بديلاً عن الله يدمر كيف يشاء ويفسد وقتما أراد... ولكنه قائد في هذا الكون يحكم تصرفاته عَقد مع من كلَّفه بالقيادة لفترة محددة هي هذه الحياة، ثم بعدها يتم الحساب ليرجع إلى ربه فيحاسبه على مستوى الأداء فيما كلفه به.

المحور الثالث هو العلم التجريبي. ففي العصور الإسلامية كان العلم التجريبي هو أهم طريق في تقييم الجزء المادي من الكون، ولدينا الكثير من الأسماء اللامعة في مجال العلوم التجريبية في الطب، مثل ابن سينا، والزهراوي، وابن الهيثم... وغيرهم من علماء غيروا مجرى العلوم الطبية والبحث العلمي في مجال الطب وغيره.

المحور الرابع هو النظرة الشمولية للأشياء، وهذا يتضح في التكامل المعرفي لدى العلماء والأطباء؛ فنجد الطبيب الفقية الفيلسوف الرياضي الموسيقي مثل ابن سينا، أو نجد عالم البصريات والفيزياء والكيمياء

hiramagazine.com

والفلسفة مثل ابن الهيثم، أو الجراح الكيميائي المجرب والمدير مثل الزهراوي... إلخ. وبالتالي فلم يكن الطبيب متخصصًا بدرجة تؤدي إلى ضيق الأفق، ولم يكن عامًّا في علمه لدرجة تخل بإتقانه لحرفته وصنعته وعلمه.

المحور الخامس هو العمل المؤسسي. فقبل عصر العلوم الإسلامية، كان العلماء يعيشون في خلايا منعزلة للتأمل إلا في بعض الاستثناءات القليلة مثل مكتبة الاسكندرية. لكن في الدولة الإسلامية كان الحج يمثل مؤتمرًا سنويًّا كبيرًا يتم فيه تبادل الخبرات من كل أنحاء العالم الإسلامي، وكان هذا التبادل يتم ليس فقط في مكة المكرمة، بل وأيضًا في البلاد المجاورة التي تقع على طريق الحجيج مثل العراق ومصر والشام. هذا التبادل المعرفي تطور بتكوين مؤسسات علمية كبيرة وجامعات مثل الأزهر والقيروان... وأنتج مستشفيات كبيرة تحولت إلى مدارس للطب في أنحاء العالم الإسلامي، مثل بيمارستان المنصوري في القاهرة، والنوري في دمشق، وغيرها في كل بلاد الإسلام من الصين إلى الأندلس... وأيضًا أنتج منظومة للتعليم والتدريب والبحث وتبادل الخبرات. وساعد على هذا تقارب اللغة والفكر، حيث كانت اللغة العربية (لغة القرآن) لغة عالمية تسهل التواصل، وبجوارها اللغة الفارسية لغة العلم والفنون، والتركية لغة السياسة. وبالتالي فلم يقتصر الطب الإسلامي على الروحانيات، وأيضًا لم يتوقف عند العوامل المادية فقط بل جمع بينهما.

خصائص الطب الإسلامي

ومن قواعد الطب الإسلامي أنه ينظر للإنسان كوحدة متكاملة مترابطة ببعضها البعض، ومترابطة بالكون من حوله، ومترابطة مع خالق هذا الكون الذي نفخ فيه من روحه. لذلك نجد في الطب الإسلامي أن الطبيب عليه أثناء الفحص، مراجعة ليس فقط العلة والمرض الذي يشكو منه المريض، ولكن عليه تقييم ومراجعة ستة أشياء أخرى: مكان معيشة المرء ونوع الهواء الذي يتنفسه، نوع الأغذية والأطعمة التي يأكلها، النوم وانتظامه وعدد ساعاته، النشاط الحركي ومدة الراحة والنشاط الذهني ومدة الراحة، العوامل النفسية والضغوط التي يتعرض

الطب في الغرب لا ينظر إلى الناحية النفسية والروحية كجزء من الكون وأنها مرتبطة بالخالق، لكنه ينظر على أنها بعض التفاعلات الكيميائية والإشارات الكهربية فقط دون أن يدرك ما وراءها.

حراء

لها وطريقة تعامله معها، الإخراج والإفرازات بما فيها العلاقة الجنسية.

إذن فالطب الإسلامي هو طب يجمع بين العلوم المادية وما وراء المادية، بين الجسد والروح، بين العقل والنقل، بين عالم الغيب وعالم الشهادة... فيبحث في كليهما ويعالج في كليهما معًا دون أن يهمل طرفًا لحساب الطرف الآخر.

مواصفات الطبيب في الطب الإسلامي

١- إنه يتقن العلوم المادية في مجال تخصصه من اطلاع على أحدث الأبحاث العلمية وإتقان لطرق العلاج والجراحة الحديثة، إلى آخره من الأسباب المادية في الشفاء.

٢- لديه علم كافٍ بجوانب الحياة الأخرى، مثل تقييم نفسية المريض، وكيفية التعامل بأدب واحترام مع المريض. ولديه من الثقافة العامة ما يجعله يمتلك الحكمة والمعرفة بجوانب الحياة الأخرى من فقه وقرآن وفن ومنطق... فيكون مثالاً للطبيب الحكيم الناجح.

٣- إنه في التعامل مع المريض والمجتمع يستحضر النية الخالصة لعمل الخير، ويعتبر نفسه دائمًا أداة من أدوات الشفاء التي سخرها الله ﷻ، وأنه لخدمة هدف كبير وسامٍ.

٤- أن يستعمل مع علمه المادي في الطب والجراحة العلمَ الروحي في آيات القرآن والأحاديث النبوية الثابتة، في استعمالها لرفع البلاء والدعاء لله بالشفاء، مثل: بسم الله الشافي، قراءة المعوذتين والفاتحة على المريض، أو قوله ﷺ: "اللهم رب الناس، أذهب البأس، اشفه، وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا" (رواه مسلم).

وهناك أيضًا الحرص على الطهارة لدى الطبيب قبل

hiramagazine.com

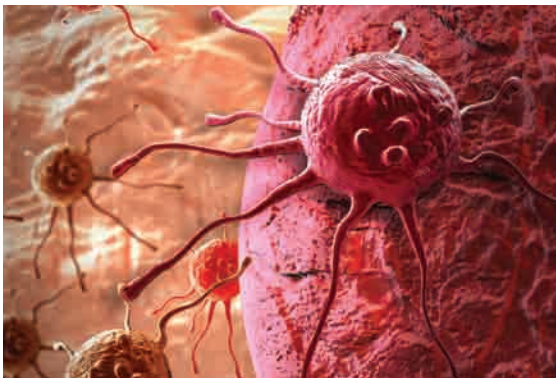

وأثناء العلاج، كأن يكون متوضئًا، ولا يكون على جنابة أثناء علاج المريض، وكذلك نصْح ومساعدة المريض على الطهارة لما لهذا من تأثير روحي ونوراني على الإنسان، فضلاً عن التأثيرات الأخرى لأهمية النظافة من الناحية المادية. وهناك تفاصيل أخرى كثيرة لا يتسع المقام للحديث عنها، وربما تفاصيل أخرى لا زلنا نجهلها عن الطب الإسلامي ونحتاج إلى إعادة اكتشافها.

بعض التساؤلات حول الطب الإسلامي

قد يقول قائل إن هذا ما بدأ يكتشفه الطب الحديث، وأن الطب في الغرب اليوم يؤكد على الطبيب أن يحسن معاملة المريض ويهتم بالنواحي النفسية للمرضى. وبالتالي فلا فرق بين ما نسميه الطب الإسلامي وبين الطب الحديث. لكن أعتقد أن هناك فارق جوهري وهو النية الموجة لهدف سام واليقين بوجود الله ﷻ. فهناك فارق كبير بين البائع الذي يتعامل بأدب في انتظار المقابِل المادي، وبين من يتعامل بأدب لأنه يتعامل مع الله قبل أن يعامل البشر. والفارق الجوهري الثاني هو أن الطب في الغرب لا ينظر إلى الناحية النفسية والروحية كجزء من الكون وأنها مرتبطة بالخالق، لكنه ينظر على أنها بعض التفاعلات الكيميائية والإشارات الكهربية فقط دون أن يدرك ما وراءها. الفارق الثالث هو استخدام العلم الديني والشرعي بجوار العلم المادي.

وبالطبع نحن نعتقد أن الطب الإسلامي ليس مقصورًا على الطبيب المسلم ولا على المريض المسلم. فقد أثبت هذا الطب نجاحه في شفاء ملايين، وربما مليارات الأجساد والأرواح على مر السنين. وبالتالي فلا يمكن أن ندّعي أنه مخصوص لثقافة معينة أو بلد أو شعب دون الآخر. وكما أن الطب الصيني يستعمله غير الصينيين من أطباء ومرضى، فكذلك الطب الإسلامي بشرط إتقان قواعده وأفكاره.

الطب الإسلامي -كما نرى- له محاور فكرية أساسية تجعله متميزًا عن باقي أنواع الطب؛ فكما نرى الطب الصيني يعتمد على فكرة التناغم بين طاقتين -طاقةِ اليين واليانج- ويستعمل الأدوية أو الإبر في تحقيق هذا الهدف، وكما نرى في الطب الياباني البديل أنه يعتمد على فكرة الطاقة الكونية والطاقة الشخصية (طاقة الري وطاقة الكي)، ويستعمل في هذا التوازن طرقًا كثيرة تتضمن العلاج باليد والأدوية والتمارين... كذلك نرى الطب الإسلامي له محاور متميزة تجعله مختلفًا عن مدارس الطب الأخرى في العالم. وكما نجد الطب الصيني يتم استعماله في كل أرجاء الكون ولا يرتبط استعماله اليوم فقط بالطبيب الصيني أو المريض الصيني، كذلك يجب أن يكون الطب الإسلامي. وكما نجد الصين تعيد اكتشاف تراثها الطبي وكنوز المعرفة لديها، كذلك نحن المسلمين يجب أن نعيد اكتشاف تراثنا الطبي المميز والذي تم نسيانه أو فقدانه أو إخفاؤه والتجهيل به عن عمد.

هناك الكثير من الملامح والتفاصيل التي لن يكفي هذا المقال لشرحها، وكلها تؤكد على أن الطب الإسلامي هو طب متفرد ومختلف وله عدة خصائص، وأننا في حاجة إلى إحياء هذا الطب في عصرنا الحديث، لأن الإنسان اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الطب. إنه الطب والطبيب الذي ينظر إلى الإنسان بصورة متكاملة كجسد وروح، ويهتم بعالم الغيب وعالم الشهادة والإنسان كجزء من الكون وخلق الله ﷻ. ونريد الطبيب الذي يحكم تصرفاته الدينُ والاخلاقُ، طبيب ينبذ التقليد ويسعى إلى الإبداع، طبيب يجمع العقل والنقل والتجربة. ■

(*) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.

hiramagazine.com

د. سلمان العودة*

طاغية

١

الـ"أنـا" الطاغيـة تبـدأ بـ"أنـا" وتنتهي بـ"من أنتـم؟"، و"الكِبْرُ بَطَرُ الحـقّ وغَمْطُ الناس" (أخرجه مسلم). وهـي المعبـرة عـن طغيـان الـذات الـذي هو أصـل الكفـر والجحود، يحتقـر الأغيـار حتـى لـو كانـوا من شـعبه أو حاشـيته المقربة، خاصة حيـن يكونون

الـ"أنا" الطاغيــة تبدأ بـ"أنا" وتنتهي بـ"من أنتم؟"، وهــي المعبّرة عــن طغيان الذات الــذي هو أصل الكفــر والجحــود، يحتقر الأغيار حتى لــو كانوا من شــعبه أو حاشــيته المقربة، خاصة حــين يكونون أصحاب شرف ديني أو تاريخي أو اجتماعي.

حراء

أصحاب شرف ديني أو تاريخي أو اجتماعي، كما قال هشام حين رأى زين العابدين بن الحسين: من هذا؟ فكان رد الفرزدق:

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا النقي التقي الطاهر العلَم
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم

رفض الشيطان السجود لآدم وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾(الأعراف:١٢)، وفرعون قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤)، وقارون قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، والنمرود قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾(البقرة:٢٥٨)، وصاحب الجنتين قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾(الكهف:٣٤).

الاغترار بالجنس أو بالعنصر أو بالسلطة أو بالمال أو بالعلم أو بالوزارة، يغري بعبادة الذات، ونسبة الخير إلى النفس، والشر إلى الغير، ولذا قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾(الحجر:٣٩)، بينما قال آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾(الأعراف:٢٣). الـ"أنا" المستكبرة لا ترى إلا ذاتها وحدها بلا شريك.

مسلّمات العلم تمر عبر الذات: أعتقد أن سرعة الضوء تساوي كذا، وأن الشمس أكبر من الأرض بكذا... وحقائق الشريعة تخضع لعقله، فهو يأخذ ويترك، ويستحسن ويستهجن، ويحرّف الكلم عن مواضعه دون بصيرة أو علم وفق ما يروق له، ويتكلم بتفاصح وتضخيم للكلمات وتركيز على مخارج النطق، وكأنه يقرأ قرارات نهائية لا مرد لها.

كيف له أن يسكت بينما الجميع يتساءلون عن قضية شرعية أو تاريخية، وهو يعتقد أن البشرية تفتقر إلى مثل حكمته وبصيرته؟

من لم يعبد ربه عبد نفسه... الإكثار من ذكر النفس يولّد نسيان الله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾(البقرة:٢٠٠)؛ ذكر الآباء تمهيد لذكر النفس، وعوضًا عن ذكر النفس شُرع لنا ذكر الله، ومن نسي الله أنساه نفسه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(الحشر:١٩).

معظم الرذائل ناتجة عن "توثين" الذات... "آن جوبلز" كان وزير الدعاية لـ"هتلر"، وذات مرة كان يشرف على إعدام قسيس فقال له: اتق الله فيّ ولا تقتلني. ردّ الوزير: يا غبي لم يعد العصر عصر الله إنه عصر هتلر. انتهى به المطاف إلى أن انتحر هو وعائلته وزعيمه هتلر، والجزاء من جنس العمل.

استعلاء الذات يعني ازدراء الآخرين والنظر للشعوب على أنها "دهماء" و"رعاع" و"همج"، فلابد من الوصاية عليها وحمايتها من نفسها.

على النقيض يمكن استذكار "تشرشل" رئيس الوزارة البريطانية أيام الحرب الثانية، والذي حقق أعظم انتصار في تاريخ بريطانيا، لقد رفض أن يعلن الأحكام العرفية على شعبه أثناء الحرب وقال: "لا أجمع على شعبنا وطأة الحرب ووطأة الأحكام العرفية". بعد النصر أخفق حزبه في الانتخابات العامة وترك الرجل الوزارة بصورة طبيعية، ولم تهتف له الجماهير في الشارع "بالروح بالدم!".

في سورة العلق، قرن العلم بالإيمان لقمع الغرور المعرفي... وشرع العبادة والسجود والقرب من الله لقمع الذات الطاغية المنفصلة عن ربها: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧).

وذكّر بالرجعى الموتَ والبعثَ ليحفّز النفس على النظر في حالها... وذكر نموذج الطاغية أبي جهل الساعي إلى مصادرة حرية الناس في عبادة ربهم وهو الذي ينهى عبدًا إذا صلّى، وتوعده بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(العلق:١٥-١٦)، وفي السورة إشادة بالإنسان المترقي من "العلق" إلى "العقل". ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. سعيد شبار*

سننية التغيير بين الإعمال والإهمال

للوقوف على المعاني والدلالات الشرعية التي جاء بها الوحي الخاتم المتمم والمكمّل لما تقدمه من الوحي، المصدق والمهيمن والمحفوظ بحفظ الله له، وهذه كلها من خصائصه ومحدداته المنهاجية والمعرفية، يجدر بنا الوقوف دائمًا على المعاني والدلالات اللغوية التي كانت تحملها الألفاظ من قبل. فقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، هو اللسان الذي كانت العرب تعرفه حق المعرفة، وبه وعليه انبنى كيانها الاجتماعي والتواصلي والأدبي.

ونحن بين يدي مفهوم "التغيير" أحدِ المفاهيم الأساسية المركزية والمحورية في الاعتبار الشرعي، يجدر بنا كذلك الانتباه إلى التغيير الذي أحدثه القرآن الكريم وأحدثته السنة النبوية على مباني ومعاني الألفاظ

التي كانت متداولة، والذي كان مدخلًا من أهم مداخل تغيير الوعي والفكر والأنفس والقيم والمجتمع. ولقد ميّز العلماء قديمًا بين الاسم اللغوي والاسم الشرعي كما فعل ابن فارس في كتابه القيم "الصاحبي في فقه اللغة"، أو بين الوضع اللغوي، والوضع الشرعي، أو الحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية، والعُرف العام والعُرف الخاص كما فعل آخرون.

والمراد من ذلك كله محاولات رصد التغيير الذي طرأ على بنيات الألفاظ وعلى معانيها ودلالاتها. وكما يتوجب التمييز في هذا المستوى بين البناء اللغوي والبناء الشرعي، فإنه يتوجب كذلك التمييز في مستوى لاحق بين البناء الشرعي والبناءات الاصطلاحية اللاحقة لدى أهل المدارس والمذاهب والفرق والطوائف التي هيمنت استعمالاتها وانتشرت، وأمست مؤطرة لفكر وثقافة وتدين المسلمين عوضًا عن المعاني والدلالات الشرعية الأصل، التي يفترض أن ترافق اللفظ والمفهوم طوال رحلته وتواجده. وذلك لأنها من المطلق الذي يستوعب الزمان والمكان، وليست من النسبي الذي يستوعبه الزمان والمكان، إذ كل مفردة من القرآن، لها كل خصائص القرآن في الاستعمال القرآني.

من هذا المنظور -على وجازة القول فيه- سنحاول أن نقتبس بعضًا من دلالات ومعاني مفهوم التغيير من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة، أي من الأصلَين المصدرين المؤسِّسَين للمعرفة، وليس من الأصول أو المصادر التي أسستها المعرفة في التداول التاريخي. هذا مع مراعاة البناء المنهجي السنني والتكاملي وفق المحددات والخصائص المفهومية في القرآن كما ألمحنا إليها سلفًا.

بعض المعاني والدلالات اللغوية

أهم ما يمكن أن نقف عليه بخصوص الدلالة اللغوية لمادة "غ ي ر" مما له علاقة بمرادنا هنا، قولهم: تغيّر الشيء عن حاله، تحوّل وغيّره بدّله وحوّله، كأنه جعله غير ما كان.

هذا بالإضافة إلى دلالات واشتقاقات ليست مرادة كالغيرة وغيرها. وذلك يعني فيما يعنيه أن التغيير في اللسان العربي قبل نزول القرآن الكريم، لم يكن تَداوله شائعًا بالمعاني والدلالات التي حملها فيما بعد، والتي تهم الأنفس والمجتمعات والقيم والأفكار، وإنما كان ارتباطه بالمعاني الحسيّة المظهرية المرتبطة بحياة البدو والترحال في الغالب. وهو معنى قريب من قول الله تعالى في كتابه العزيز على لسان إبليس: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾(النساء:١١٩)، وقوله تعالى واصفًا نعيم الجنة: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾(محمد:١٥).

من معاني التغيير في القرآن الكريم

معنيان كبيران تدل عليهما آيتان كريمتان مختلفتان لفظًا لكنهما متحدتين قصدًا، إحداهما وردت في سياق الإيجاب والسلب، والثانية في سياق السلب. الأولى تغيير من الحالة السلبية إلى الإيجابية أو العكس، والثانية تغيير من الحالة الإيجابية إلى الحالة السلبية. ومدخل التغيير في الحالتين معًا "النفس". وغاية التغيير ومقصده الصلاح والاستقامة على أمر الله ونهيه، ومجالات التغيير في الآيتين معًا. "ما" المستغرقة الأحوال النفس كلها والأحوال الواقع كله.

أما الآية الأولى فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

والآية نص في أن هنالك تغييران، أحدهما من الله ﷻ، والثاني من الناس، والعلاقة بينهما سننية سببية متلازمة، هي كترتيب النتيجة على مقدماتها. فحسب سنن الله الجارية في المخلوقات، الناظمة والضابطة لأحوالها، لابد من الأخذ بالأسباب. وإذا كان ذلك جار وجائز على الأنبياء أنفسهم الذين اصطفاهم الله لرسالاته، فهو فيمن دونهم أوجب وآكد ضرورة. فتغيير الإنسان جزئي مدخله النفس وهو سبب، وتغيير الله كوني شامل مستوعب لأحوال الإنسان النفسية والمادية المحيطة به وهو نتيجة.

وهذه المطابقة هي ما نص عليه العلماء من تلازم سنن الله تعالى الدينية الشرعية وسننه الكونية القدرية، حيث رتبت إحداهما على الأخرى ترتيبا سننيًّا منهجيًّا محكمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا

hiramagazine.com

وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الأعراف:٩٦)، وقوله: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾(الجن:١٦-١٧). فإقامة سنن الله الدينية الشرعية التي هي هداية الرسل والرسالات، تستتبع ضرورةً إنعامًا إلهيًّا كونيًّا قدريًّا بالخير والبركة، وتعطيلها يستتبع عقوبات إلهية بحجم ومقدار الجحود والإنكار والتعطيل. وكل قصص الأمم الغابرة الهالكة والأخرى الآمنة المطمئنة التي قص علينا القرآن، شواهد في هذا الباب. فلابد مراعاة هذا الضابط السنني أولًا.

أغلب المفسرين للآية المتقدمة على قول إن الله لا يغيّر ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا. وهو ما يمكن عكسه أيضًا، أي أنه سبحانه لا يغير ما بقوم من النقمة والخذلان حتى يغيروا ما بأنفسهم من الغواية والعصيان.

وكما ذهب الإمام القرطبي في تفسيره -في تنبيه جيد بين يدي الآية- إلى أن العقوبة لا تنزل على أعيان العصاة ضرورة، فقد تكون بسبب من غيرهم إذا تفشت الفاحشة واستفحلت المعاصي. ولقد سئل النبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبث" (رواه مسلم). وذلك ما يوسع أيضًا من دائرة المسؤولية على النفس وعلى الغير، وينسجم مع مفهوم الشهادة على الناس، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي الجاهلين كما ورد في حديث السفينة لما قال الذين في أسفلها: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا؟ فكان التحذير والتنبيه: "فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا" (رواه البخاري).

فتلازم تغيير ما بالنفس، مع التشديد والتأكيد على شمول واستغراق "ما" لكل أحوال النفس الإيمانية والفكرية، والقولية والفعلية، والخلقية والسلوكية... مع ما بالقوم، مع التشديد والتأكيد نفسه على شمول واستغراق "ما" لكل أحوال القوم الذين جاؤوا في سياق النكرة، وذلك كما قيل إفادة للتعميم، أي لكل ما يحيط

التغيير ليس دعوة أو خطابًا حماسيًّا كما يعتقد الكثيرون، بل هو عمل تتركب فيه عناصر وأجزاء تركيبًا دقيقًا، إذا ما أُحسن أعطى أكله وثماره، وإذا ما أسيء لم يعط شيئًا وكان هدرًا للجهد والوقت.

حراء

بهم في حياتهم المادية الدنيوية من التكريم في الذات إلى تسخير المخلوقات والكائنات، وصلاحهم في حالهم هو نفسه فلاحهم في مآلهم. ذلك التلازم يجعل من صلاح النفس علة تدور مع حكمها الذي هو التغيير وُجودًا وعدمًا كما يقول الأصوليون.

أما الآية الثانية، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال:٥٣)، وهي مثل الأولى في سننيتها ودلالتها وقصدها وإن نصت على النعمة تحديدًا، إذ كل فضل الله على عباده نعمٌ أنعم وينعم بها عليهم. وكما أن الوضع السيئ ينقلب إلى حسن بإعمال سنن التغيير، فإن الوضع الحسن يمكنه أن ينقلب إلى سيئ، والنعمة يمكنها أن تزول بإهمال سنن التغيير والانقلاب على قيم الخير والصلاح.

ذهب الإمام الشوكاني في تفسيره في التماس معنى الآية إلى "أن ذلك العقاب، بسبب أن عادة الله في عباده؛ عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال والأخلاق، بكفران نعم الله ونمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه. وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم، ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين. فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بإرسال وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر، فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها".

ومثل هذا في القرآن، وردت فيه آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(الشورى:٣٠)، ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(يوسف:١١٠)، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾(الرعد:١١).

كما أن ضمائم التغيير في القرآن الكريم كثيرة،

hiramagazine.com

يندرج فيها كل خطاب وارد عن الإصلاح والإحياء والهداية والاستقامة، وقبل ذلك الإيمان والتقوى. فكل ما يسهم في تغيير النفس من حال المعصية إلى حال الطاعة، ومن حال الانحراف إلى حال الاستقامة هو مراد مضموم إلى معاني التغيير ودلالاته الواسعة.

من معاني التغيير في السنة والسيرة النبوية

إجمالًا، السيرة النبوية من أولها إلى آخرها، أي منذ بعثة الرسول ﷺ إلى وفاته، كلها حركة ومدرسة في التغيير، بأحداثها الكبرى العامة وبأحداثها الصغرى التفصيلية، من تقويم الأنفس وهدايتها إلى بناء الجماعة ولحمتها، مما يتوجب استكشاف المزيد من دلالاته وعبره ودروسه، ومثل ذلك سنته ﷺ بيانًا لما أنزل إقامة للوحي وتقويمًا للعادات السائدة.

ومن أحاديث الباب في التغيير حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" (رواه البخاري). وكما هو واضح في الحديث، هنالك مراتب في التغيير، ومسؤوليات واختصاصات معتبرة كي يتحقق التغيير بمقصده ويثمر الثمار المرجو منه، وإلا فإن الخلط بينها أو تجاوز حدودها المرسومة لها، سينتج أضرارًا ومنكرات أسوأ، وسيصادم روح وجوهر التغيير نفسه. ومن أقوال العلماء في ذلك أن التغيير باليد موكول إلى الحاكم والسلطان، وليّ الأمر الذي بيده إجراء العقوبات والتعزيرات. إذ لو غَير كل أحد أو جماعة باليد، سواء تحققوا من المنكر أو لم يتحققوا بالاعتبار الشرعي له -لا بالظن والتوهم- فذاك البلاء بعينه والفتنة بعينها كما هو حال الأمة اليوم. ولقد اشترط بعض العلماء شروطًا في هذا المنكر منها:

- أن يكون محرمًا مجمعًا عليه لا مكروهًا أو مختلفًا فيه.
- أن يكون ظاهرًا مرئيًا لا باطنًا أو مستورًا.
- أن يكون مقدورًا على تغييره من جهة الاختصاص خشية الوقوع في منكر أكبر منه.
- أن يكون برفق وحكمة ولين وتدرج.

أما التغيير باللسان فموكول إلى العالِم المُبْصِر والمُبَصر بحقيقة الأمور، والمعرَّف بحكم الشرع أمرًا ونهيًا، والمقنع بالأدلة والحجج الشاهدة. والتغيير بالقلب فموكول إلى العامة ممن ليست لهم قوة اللسان أو قوة السلطان، لكن لهم أن يمنعوا أنفسهم من التطبيع مع المنكر والفساد ومن التطبّع به أو الاستئناس به عند فُشوّه. فحالة الإنكار هنا، تعني جاهزية النفس الدائمة لرفض المنكر والاتجاه إلى المعروف.

وهذه المراتب والاختصاصات ليست تفاضلية وإنما تكاملية، فكلها مطلوبة في الآن نفسه، يشتغل بعضها إزاء بعض لتثمر حركة إيجابية في واقع الأمة. وهدي القرآن في التغيير هو المنهج النبوي فيه كذلك قائم على الحكمة، وعلى الموعظة الحسنة، وعلى الجدال بالتي هي أحسن، وعلى لين الجانب... وما إلى ذلك مما تميل وتنجذب إليه الأنفس وتتهيأ للسماع والاقتناع.

نجد في السنة كذلك أحاديث تدل على التغيير من الحَسَن إلى الأسوأ وما يترتب على ذلك من عقوبات حسب حجم المخالفة كما في حديث: "من غيّر دينه فاضربوا عنقه" (رواه مالك). بالنسبة للخارج عن الجماعة المفشي لأسرارها لدى العدو، يتعلق الأمر بالخيانة العظمى كما في اصطلاحنا المعاصر، باعتبار الردة ردة سياسية أكثر منها فكرية. كما تدل على ذلك روايات أخرى للحديث كحديث: "لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة" (رواه مسلم)، وحديث: "إنها ستكون هناتٌ وهناتٌ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان" (رواه مسلم).

وهناك حديث الحوض عندما يحال بين النبي ﷺ وبين أقوام من أمته عليه فيقول: "إنهم منّي"، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فيقول: "سحقًا سحقًا لمن غيّر بعدي" (رواه البخاري).

واقع التغيير في الأمة

قامت في الأمة منذ وقت مبكر حركات تغييرية إصلاحية كثيرة، بعضها أفلح إلى حدود معينة، وبعضها أخفق ولم يفلح، وبعضها أفسد ولم يصلح وألحق بكيان الأمة

hiramagazine.com

انقسامًا وتجزئة زادا من وهنها وضعفها. ومرد ذلك كله -في تقديرنا- إلى إخطاء هذه الحركات منهج التغيير السنني الذي دلت عليه الآيات والأحاديث سالفة الذكر.

فالتغيير ليس دعوة أو خطابًا حماسيًّا كما يعتقد الكثيرون، بل هو عمل تتركب فيه عناصر وأجزاء تركيبًا دقيقًا، إذا ما أُحسن أعطى أكله وثماره، وإذا ما أسيء لم يعط شيئًا وكان هدرًا للجهد والوقت.

• فإذا كان التغيير السنني يدور وجودًا وعدمًا مع صلاح النفس -عقلًا وقلبًا، فكرًا ووعيًا- فإن التغيير اللاسنني يتعلق بظواهر الأشياء قبل بواطنها، وبعالم الأشياء قبل عالم الأفكار.

• وإذا كان التغيير السنني يراعي مراتب الأصول والفروع، يقيم الأولى قبل الثانية، ويجعل الثانية تبعًا لها، ويحدد اختصاصات التغيير ومجالاته وأصوله ورجالاته، فإن التغيير اللاسنني يخلط بين ذلك كله فيقدم الفروع على أصولها ويجعلها حاكمة عليها، ويتصدى له من ليس له بأهل.

• وإذا كان التغيير السنني يؤمن بالمرحلية والتدرج وأسلوب معيّن في الخطاب والتواصل، فإن التغيير اللاسنني ينزع إلى الطفرة والتسرع والاستعجال، بأسلوب فيه من القطيعة والغلظة والجفاء أكثر مما فيه من التواصل والرفق واللين.

• وإذا كان التغيير السنني ينحو إلى إحلال الأمن والإيمان حيث يُمَكّن للعمران، ومن ثم فهو أجنح إلى السلم منه إلى الفوضى، فإن التغيير اللاسنني أجنح إلى الصدام والنزاع حيث لا أمن ولا إيمان وبالتالي لا عمران.

• وأخيرًا وليس آخرًا، فالتغيير السنني وعي وعلم وليس ظنًّا، له أصوله ونظامه ومفاهيمه ومناهجه وقيمه وأخلاقه، منطلقة العلم والمعرفة، والتغيير اللاسنني إخلال بموجبات ومقتضيات ذلك كله. ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب، بني ملال / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الفراغ الرهيب

أيدٍ نحو الفراغات ممدودة،
وعقول حولها مشدودة..
"اللاَّشيءَ" تريد،
وبالوَهْمِ ترغب..
ما أضيع ما تتعب،
وما أخيبَ الذي إليه تتوجه..
أيتها الأيدي..
وَحّدي ولا تكثري..
وإلى الواحد الأحد انظري..

* * *

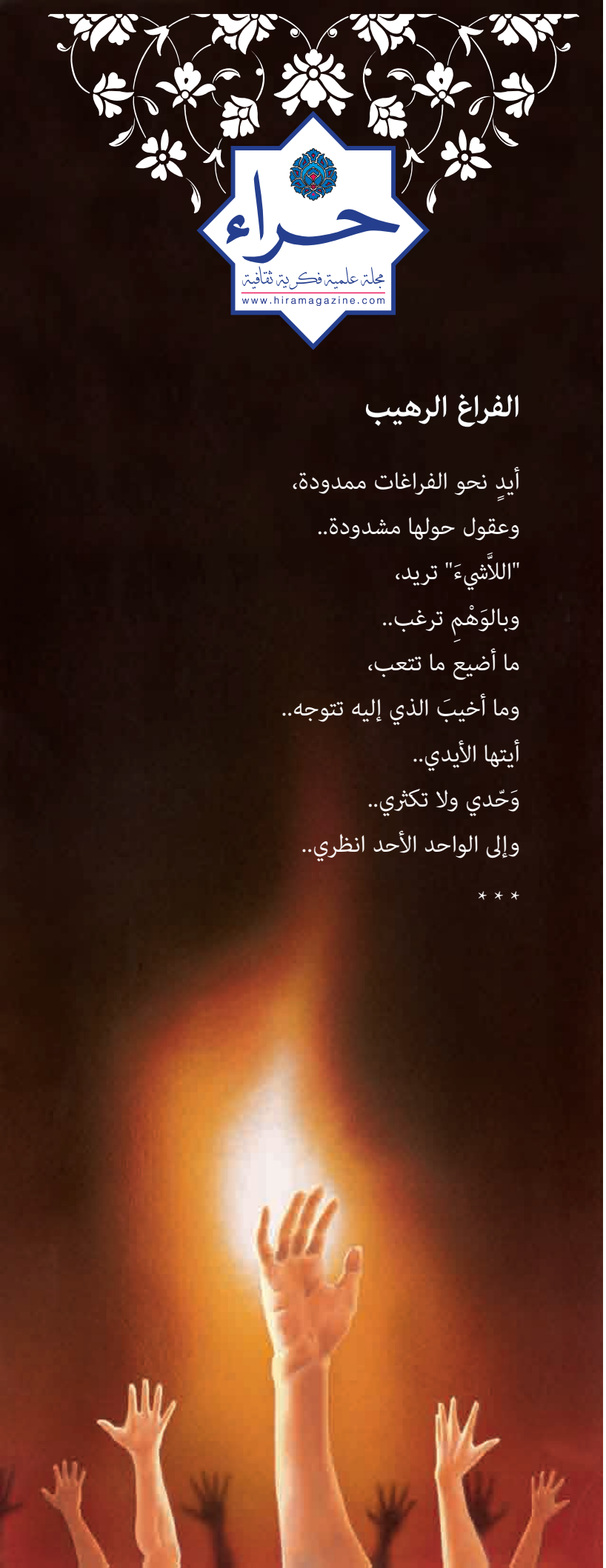

د. فؤاد البنا*

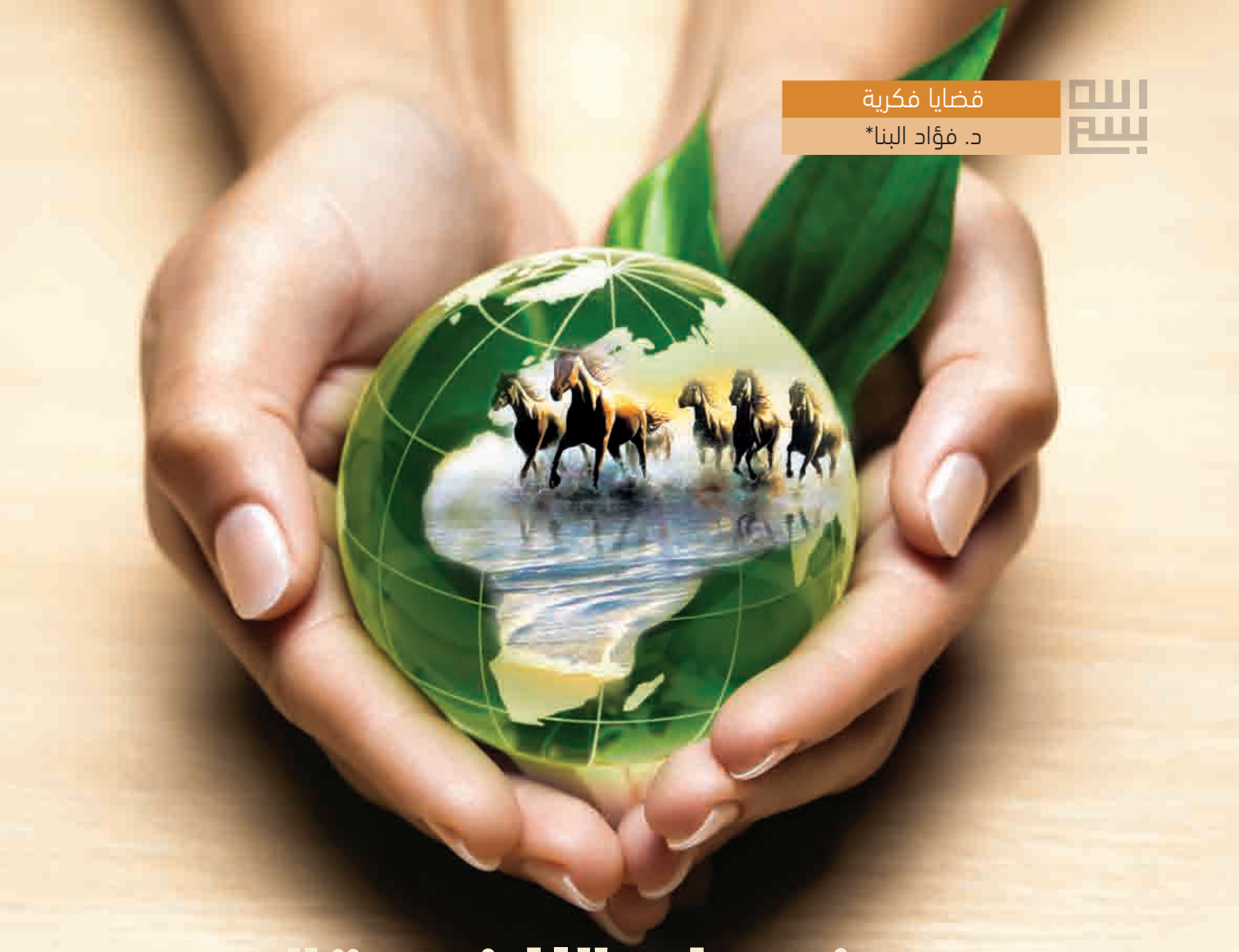

فرسان "الخدمة"
وفيالق العبور إلى النور

نتيجة تأهيل رباني وتأديب رحماني في عالم الغيب، وبسبب امتلاك بعض النوادر من عمالقة الزمان لكثير من الخبايا البشرية والعطايا السبحانية، ونتيجة لتفعيل سائر المنح والمواهب في طريق الإصلاح الشامل الذي يخدم الخلق ويرضي الحق، فإن الله ييسرهم لما خلقوا له، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولا شك أن من هؤلاء، الأستاذ فتح الله كولن الذي أحدث في تركيا تغييرًا هائلاً من خلال تيار كبير أوجده بنعمة الله عليه وهو "تيار الخدمة" الذي بدأ منذ عقدين بالسير في جنبات الأرض، لينير الأنفاس الطيبة والنفائس الكريمة، وليوزع الخدمات الجليلة بدون منّ، ويشيع مشاعر الإسلام بدون شعارات بعد عقود من الكد الكادح داخل حدود تركيا العزيزة.

لقد أوجد جيلاً ذهبيًّا حُق له أن يُفاخر به الدنيا، فإن عامته من الرواحل ومن الفرسان؛ فرسان "الخدمة" الذين وصلوا إلى هذا المرتقى الصعب بمؤهلات كثيرة، إذ إن أكثرهم فرسان في كافة الجيهات والاتجاهات:

١- فرسان استنارة وعرفان

فهم يتبعون طريق الهدى، ويتجافون عن سُبل الهوى،

ويمتطون مراكب التقوى في عروجهم نحو السماء، وذلك بمزيد من الالتحام مع أهل الأرض.

اعتقادهم أمل، وشكرهم عمل، متأسين بآل داوود الذين قال المولى ﷻ لهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾(سبأ:١٣).

يجري "الطائف" منهم في أصقاع الأرض خادمًا، فيثيبه الله بالكثير من "اللطائف".

ومن ذلك أنهم لا تتشابه عليهم البقر، ولا تلتبس عليهم السبل، ولا تتيه بهم المسالك، ولا تعجزهم كثرة المسائل.

٢- فرسان حكمة وسداد

أقوالهم نبات تفكير، وأفعالهم تخرج من رحم التدبير، رأيتهم قليلي الكلام ويبدو أن مقولة الإمام علي كرم الله وجهه "إذا تم الفعل نقص الكلام" تنطبق عليهم، وتبدو قلة كلامهم من كثرة فعالهم، لأن الإناء الممتلئ أخف صوتا من الإناء الفارغ، والعربة الممتلئة أقل جلبة من العربة الفارغة.

ولأنهم قليلو كلام فإن أخطاءهم أقل، وسدادهم أكثر، إذ إن عقولهم راجحة وأفكارهم راقية، ولهذا ظلت دومًا أسهمهم غير طائشة بل رابحة.

لقد عرفوا بإحسان التدبير وتجفيف منابع الحماقة والتدمير، ولأنهم فرسان فإنهم لا يكفون عن ركوب أحصنة "التأني" ولا يدخلون حصون "التواني"، إذ إنهم يتأنون في نيل الأماني ولا يتوانون عنها.

ومن مفردات حكمتهم وسدادهم أنهم يعالجون ندوب الافتقار، وأدواء الجهالات، وآثار العثار.

٣- فرسان تسامح وائتلاف

لقد رأيتهم يسدون الخُلل، ويصلحون الخَلل... يقيلون العثرات، ويغفرون الزلات، ويسترون العورات... يغضون الطرف، ويبحثون عن الأعذار... يقللون العتاب، ويُندرون اللوم.

لا يقطعون الحبال، ولا يَحُلّون العرى، ولا يصرمون العلائق، ولا يفصمون الأواصر، يرتدون أردية الحلم، ويأتزرون بمآزر العفو، ويضعون على رؤوسهم عمائم الكرم، وعلى العموم فإنهم يلبسون ألبسة التقوى.

٤- فرسان فضائل وأخلاق

فضائلهم كثيرة ووسائلهم عفيفة... لا يغرقون في مستنقع السياسة ولا يتسلقون سلّم الرياسة.

ينتمون إلى الفضائل لا إلى الفصائل، وينحدرون من الأدب لا من الحسب، وينتسبون إلى المكارم لا إلى الكرام، ويتسابقون في اتباع الأسباب لا الأنساب.

إنهم كريمو الخصال، طيبوا الوصال، يكتفون بالكفاف، ويتجملون بالعفاف، يسَعُون الناس بأخلاقهم ويحاولون أن يسَعُوهم بأموالهم.

وبالجملة فإن الفضيلة فرس جموح كما قال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، لكن فرسان الخدمة أثبتوا براعتهم ومهارتهم، حيث نجحوا في امتطاء هذا الحصان بجدارة عالية.

٥- فرسان حب وصفاء

لقد قالت العرب قديمًا: "لا يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب"، حيث كانت وما تزال الأمطار تهطل غزيرة في جنوب الجزيرة أي اليمن، وهكذا هم أبناء الخدمة، إذ إن قلوبهم سحاب هطال، ومشاعرهم غيث مدرار، وما فتئت أفئدتهم ترعد وأيديهم تمطر.

بصفاء قلوبهم يعالجون أكدار الناس، وبحلاوة كلامهم يواجهون مرارات الخلق، وبأنوار عقولهم ينازلون كلمات الحياة، وبأيديهم الطويلة يعمرون أقاصي الأرض وأغوار الحياة.

لا يتربصون بكائن الدوائر، ولا يتمنون لأحد الغوائل، ولا يضمرون لشخص العداوات، ولا ينسجون لإنسان الحبائل.

٦- فرسان عدل واستقامة

إنهم قائمون بالحق، قوامون بالقسط، مستقيمون في أبواب الحقيقة... تجدهم دائمي الاستقامة، لأنهم مملوؤون صدقًا وعدلاً، أما الكيّس الفارغ فإنه لا يستقيم.

يعشقون الإنصاف، ويرفعون عن المستضعَفين الإجحاف، يحاربون الجوع والخضوع... لا ينصرون الظَّلوم ولا يخذلون المظلوم.

لا يكفّون عن كفكفة دموع المظلومين والمحرومين،

hiramagazine.com

وعن رد الإشراق إلى وجوههم الكسيفة، وإعادة الاستقامة إلى أجسامهم الكسيحة... ولا يتعبون من العمل من أجل رد الأمر إلى نصابه، والحقِّ إلى أصحابه، ومن إعادة المياه إلى مجاريها، والسفن إلى مراسيها، والطيور إلى أعشاشها.

٧- فرسان عطاء ومعروف

يضعون الأُعطيات والمِنَن قلائد في أعناق الرجال، بل ويقتلون خصومهم على طريقة الخليفة العباسي المأمون الذي قال: لقد بلوتُ رعيتي بالسيف والكرم، فكان الكرم أنجع فيها، حيث يقتلونهم بالمعروف، كما قال الشاعر العربي:

وإذا بغى باغ عليك بجهله

فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

يؤمنون بما آمن به السلف، حيث يرون أن منع الموجود سوء ظن بالمعبود، وبعطائهم يصونون أعراض الكِرام، ويحمون أعراضهم من اللئام.

يكثرون من النوال بدون سؤال، بل يعطون ويشكرون، ولهذا فإن الله يزيدهم على الشكر اللفظي والشكر العملي، ولذلك تراهم في ازدياد متعاظم وتوسّع مستمر.

ويصح فيهم قول عاصم بن وائل:

وإنا لنقري الضيف قبل نزوله

ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ويبدون مبتسمين وهم يعطون، لأنهم يتلذذون بصناعة المعروف وبذل الخير حتى يصح أن يقال في "ابن الخدمة" ما قاله زهير:

تراه إذا ما جئته متهللاً

لأنك تعطيه الذي أنت سائله

يُشعرونك أنهم إخوانك الذين لم تلدهم أمك وأنك أنت الذي أعطيتهم، ذلك أنهم دائمو البحث عن الأجر لا عن الشكر.

وبجملة واحدة في هذه الخصلة، فإنهم يحرصون على أخذ المال من الحلال وصرفه في النوال.

٨- فرسان عمل وإنجاز

يقللون من الأقوال ويُكثرون من الأفعال، يبخلون بالشعارات ويجدّون بالإنجازات.

يعظون الناس بأحوالهم لا بأقوالهم، ويربّوهنم بأفعالهم لا بأفكارهم، ويخدمونهم بمشاريعهم لا بشعاراتهم.

يصنعون الخطط، وينسجون البرامج، ويتسلحون بالأسباب والوسائل، بعيدًا عن التواكل الأجوف والأماني الفارغة والأحلام الحمقاء، وكأن لسان حالهم يقول ما قاله الشاعر العربي:

لسنا وإن أحسابنا كرمت

يومًا على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا

تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ولأنهم عمَليّون من طراز رفيع، فإنهم لا يهذرون في الكلام، ولا يسفون في الخصام، ولا يتأثرون بالسفاسف، ولا ينقادون للرعاع، ولا يهتمون بسقط المتاع، ولا يقفون عند توافه الأمور.

٩- فرسان إحسان وفاعلية

لا يمكن أن ترى ابنًا للخدمة يتيه في قفار السلبية، بل في أودية الإيجابية تراهم يزرعون، وفي سهوب الفاعلية تجدهم يصنعون، وفي سهول الحركية تجدهم يغزلون خيوط الشمس، حيث المجد القادم والتمكين المنشود.

لا يبخلون بخدمتهم، ولا يمنعون رفدهم، ولا يضِنون بمعروفهم، ولا يمنّون بإحسانهم... يُفرجون الكروب ويبردون غليل القلوب... يحاربون النوائب ويجابهون المصائب... يُشبعون الجائعين، ويُهدون الحيارى الضائعين، ويردون الشاردين الزائغين... يقيمون موازين العدل ويكثرون من مواسم البذل.

لقد نجح هؤلاء الفرسان في تحبيب الله إلى الكثير من خلقه، كما قال حكيم الصحابة أبو الدرداء ﷺ: "إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحببون الله تعالى إلى عباده، ويعملون في الأرض نصحًا"... وكيف لا يحب الناس ربهم؟ وهؤلاء باسمه تعالى يكشفون الكروب، ويضيؤون الدروب، ويحاكمون الخطوب، ويحاربون الحروب.

وقبل أن يربح "أبناء الخدمة" كل أولئك الناس الذين أحبوا الله بسببهم، فقد ربحوا أنفسهم حيث صاروا

hiramagazine.com

أدوات لتنزل أقدار الله الرحمانية وألطافه السبحانية.

ومما يروى في هذا السياق قول الإمام علي ﷺ: "إن لكل شيء ثمرة، وثمرة المعروف تعجيل السراح"... ولما كان هؤلاء صنّاعًا للمعروف، فإن الله وقاهم مصارع السوء، بل وعجّل سراح أرواحهم من أسر الأنانية وأسرار الطين، حيث ارتقت في آفاق الإحسان ومجرّات الفاعلية.

١٠- فرسان خدمة وتضحية

لقد كانت الخصال التسع السابقة مؤهلات لاصطفاء الله لهم واستخلاصهم للخدمة الدانية قطوفها، السائغ شرابها، السابغة تربيتها، السامقة مشاريعها.

لقد صارت الخدمة منارًا للحيارى، وفنارًا للسادرين، وأمست قاربًا للغرقى، وملجأ للمستضعفين، وأصبحت بعد ذلك كله مطعمًا للجائعين، ومدرسة للجاهلين، ومصحة للسقيمين، وكهفًا للملهوفين.

لقد وجدتُ من عرفتُ من أبناء الخدمة يزدلفون إلى الخالق بخدمة الخلق، ويتوسّلون إلى مرضاة الرب باستلطاف المربوبين، ويتخذون من خدمة الورى مرقاة للصعود إلى فردوس الطاعة الإلهية، ويتعبدون الله بتقديم عونهم للعبيد... لقد وجدتُ ربيعهم دعوة، وصيفهم منجزات، وخريفهم توبة، وشتاءهم متعة ببرد الرضا عن أقدار الله التي اصطفتهم تشريفًا وتكليفًا، وما زالوا في هذا الدرب سائرين حيث يجددون غزْل الأفكار ويجيدون نحت الأفعال، يجودون بكريم الأموال ويستجدون تقديم أطيب الخدمات، ولا يبالون بما يكرعون في هذا الطريق من تضحيات، كأن الشاعر العربي القديم قد عناهم بقوله:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك

ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك

شتت فيك شمله ليجمعك

إنهم دائمو الدأب لجعل وطنهم وأمتهم في المقدمة ويقفون في الخلف، فهم عند بذر الأسباب في الأمام، وعند حصد النتائج في الوراء الخلف، يتزاحمون في "المبادارت"، ويتسللون لواذًا من أمام "البيادر".

يبرزون عند المغارم، ويختفون عند المغانم... يكثرون في أخاديد التضحية، ويقلون في أودية المكاسب... يتقدمون في زمن الانكسارات، ويتأخرون عند مجيء الانتصارات.

١١- فرسان قيادة وكفاءة

لا تستطيع كثير من الأمم العبور إلى المستقبل المشرق، لأنه في العادة يكون بعيدًا وسامقًا، ومن لا يملك الزاد والمراقي لا يمكن أن يعبُر أو يصعد.

وبالنسبة لفرسان الخدمة، يبدو أن الصفات العشر السابقة هي المراقي التي اعتلوها للصعود إلى المستقبل الوضيء، ولا سيما أنهم قد أصبحوا سادة في هذا الزمن، إذ ارتقوا إلى السيادة عبْر سُلّم الخدمة كما قال ﷺ: "سيد القوم خادمهم".

عندما رأيتُ مهارتهم في مُعاركة أمواج الحياة، أيقنت بأن أمتنا بدأت بامتلاك قنطرة العبور إلى المستقبل، إذ يتميزون بأنهم في ابتلاء النقم يصبرون وفي ابتلاء النعم يشكرون، ومن هذا وذاك تتكون المادة التي تُصنع منها جسور العبور الآمن إلى المستقبل المشرق حيث الاستخلاف الكريم والتمكين المكين.

لقد جعلوا الخدمة مصباحًا لتبديد دياجير التخلّف وقنديلاً لجلب فراش السرور، وجعلوها مغلاقًا للشرور ومهلكة للآثام، ومحرقة للكبائر، حيث تُشيع قيم الإنصاف وتجتثّ أشواك الفجور، وتُشعّ بشموع العطاء وصنائع المعروف، وتضيء بفضل مواقد الخير وأنوار المعرفة وبدور العرفان.

وبالجملة فإن أبناء الخدمة هم من فرسان أمتنا الذين سيعبرون بها من مرحلة التيه الحالك إلى مراحلة الفرقان النوراني، ومن مربع الغثائية السوداء إلى دائرة الفاعلية البيضاء، وإن معرفتي بنماذج منهم تعطيني ثقة بفروسيتهم، فإن اختبارك إياهم لا يزيدك إلا اختيارًا لهم، إذ في أيديهم تسكين للروعات وفي قلوبهم تسكن الروائع. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201098325549+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Turkiye

Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201065523089 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

samanyolu
broadcasting group

قناة حراء

www.hira.tv
twitter.com/TVHira
youtube.com/HiraTVChannel
facebook.com/hiratv
vimeo.com/hiratv

لسان الحقيقة

Speaking the truth

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

فرسان العصر

إنِ اشتعلتْ شمعة،
فشموعًا أخرى تُشْعِلُ..
كالأفئدة الفياضة بلدنيّة الأسرار،
بعضها يقبس من بعض..
والأنوارَ يرسلون، والأرضَ يجوبون،
ومكانًا مكانًا يضيئون..
هؤلاء هم فرسان العصر..
إذا مرُّوا من مكان،
بعثوا الحياة وأيقظوا مشاعر
ماتت من زمن بعيد.

* * *

ISSN 1306-1879
Temmuz - Ağustos 2014 Sayı: 43 Fiyatı: 7,5 TL.
www.hiramagazine.com
43